المصطفين الأخيار الّذين يكرمهم الله تعالى بنعمتي النّبوّة والرّسالة يصنعهم الله تعالى على عينه جلّ وعلا وهو عزّ وجلّ أعلم حيث يجعل رسالته . وهؤلاء المصطفون الأخيار غايةٌ فى فرط الحماسة ورقّة العواطف وفيض الشّعور وشدّة الإخلاص . ومن أجل ذلك يكاد الواحد منهم يموت لفرط حزنه بسبب إعراض قومه عليه الصّلاة والسّلام عنه . إنّ الواحد من هؤلاء المصطفين الأخيار يتبيّن أنّ أولئك الأشقياء المعرضين عن الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد لا ينقصهم سوى أن يتخلّوا عن عنادهم وعن إعلانهم بألسنتهم وأفواههم ما ليس فى قلوبهم وضمائرهم . إنّهم بدلاً من جحود آيات الله تعالى الّتى استيقنتها أنفسهم عليهم أن يصدقوا النّيّة والقول والعمل وأن يتخلّوا عن الصّراع العنيف فى أعماقهم بين الحقّ والباطل وعن الانتصار للباطل ضدّ الحقّ ظلمًا وعدوانا . وإنّهم بدلاً من تكذيبهم رسول الله تعالى إليهم عليهم أن يبادروا إلى تصديقه والإسهام فى الدّعوة إلى الله تعالى . وإنّ أولئك الأشقياء ظالمون لأنفسهم ولسواهم . إنّهم يظلمون العبادة بتوجيهها إلى غير المستحقّ لها وحده لا شريك له . وإنّهم يجحدون آيات الله تعالى ويقولون عن تلك الآيات من الكذب غير الّذى تعتقده قلوبهم من صدق تلك الآيات . وما دامت الجراءة قد بلغت بهم ذلك الدّرك الّذى انتهوا معه إلى جحد آيات الله تعالى فمن الطّبيعّي أن يكونوا أكثر جراءةً فى حقّ رسل الله تعالى . إنّهم بشأن آيات الله تعالى يجحدون ، وإنّهم بشأن رسل الله تعالى يكذّبون . إنّ الجحد والتّكذيب يصدران عنهم رغم آيات الله تعالى البيّنات الّتى اصطفى الله تعالى بها ذلك الرّسول الكريم والّتى يؤمن بمثلها المنصفون من قومه عليه الصّلاة والسّلام . إنّ هذه الآيات البيّنات الّتى اصطفى الله تعالى بها رسله ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد بن عبد الله ﷺ كافيةٌ لأن يؤمن بمثلها البشر حينما لا تسيّرهم الأهواء وحينما يلبّون نداء الفطرة . وما أكثر الّذين آمنوا بمحمّد بن عبد الله ﷺ حتّى الوقت الّذى نزلت فيه سورة الأنعام المكّيّة هذه . ومَنْ هؤلاء الّذين آمنوا فى الفترة المكّيّة وقبل هجرة

المصطفى ﷺ وإن كان عددهم قليلاً فى حدود ثلاثمائة شخص ؟ إنّهم الّذين كانوا عُمُدَ دولة الإسلام فى فجره حينما تأسّست بهجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة . ومَنْ هؤلاء الّذين آمنوا بالقرآن الكريم واتّبعوا خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وكانوا من هذه الأمّة الّتى خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ؟ إنّهم الأفراد والجماعات والأمم الّتى لا يحصيها إلاّ الله تعالى الّذى وعد بإظهار هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون . وقد انفردت معجزة محمّد بن عبد الله ﷺ بأنّها معجزة بيانيّةٌ خالدةٌ تالدة إلى يوم الدّين لأنّ محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ولأنّ رسالته ﷺ عالميّة منذ فجر هذا الدّين .

لقد اتّضح وتأكّد أنّ كفّار مكّة لا تنقصهم الحجّة وإنّما هم معاندون متعنّتون ، فهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان ، ومع ذلك هم يقفون من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد موقف الأنعام الّتى لا تسمع من داعيها إلاّ دعاءً إن كانت قريبة أو نداءً إن كانت بعيدة . وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن فرط الحزن لدرجة الهلاك بسبب إعراض قومه عنه عليه الصّلاة والسّلام . وهل يستطيع الرّسول ﷺ الرّءوف الرّحيم ألاّ يحزن وألاّ يستبدّ به الحزن لإعراض الكافرين عنه ﷺ ؟ إنّه ﷺ يستطيع أن يحزن ولكن عليه فى الوقت ذاته أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ، وأن يعلم أنّما عليه البلاغ والبلاغ وحده ، وأنّ كلمة الله تعالى قد سبقت بنصر المؤمنين ودخولهم جنّات النّعيم ، وأنّ كلمة الله تعالى قد حقّت بخِذْلان الكافرين ودخولهم نار الجحيم ، : ﴿ وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجِنّة والنّاس أجمعين ﴾[1] إنّه فى ضوء هذه المعاني الّتى تتوّج بفرط حزن المصطفى ﷺ لدرجة الهلاك بسبب إعراض الكافرين عنه ﷺ ، وفى ضوء نهيه ﷺ عن هلاك نفسه لفرط الحزن نستطيع أن نفهم الآية الكريمة الّتى نحن بصددها والّتى تأخذ بسببٍ من عتاب الله تعالى عبده وحبيبه محمّداً ﷺ .

---

(١) سورة هود ١١٩ .

إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : إن كان قد كبر عليك وعظم أيّها الرّسول الكريم ، وصعب عليك وشقّ أيّها النّبيّ العظيم ، إعراض قومك الّذين تدعوهم إلى صراط العزيز الحميد ، وانصرفوا بوجوههم عنك وهي دليل القبول والإقبال ، وأظهروا لك عَرْضهم وهو دليل الإعراض عنك والإدبار ، فإن استطعت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وقد عرفت أنّ القوم لا تنقصهم الآية البيّنة لأنّ آيتك بيانيّة وهم أئمّة البيان ، فإن استطعت أن تأتيهم بآيةٍ استجابةً لفرط حماستك في سبيل دعوتك فافعل .

وهنا يلفت انتباهنا اتّجاه الآية الكريمة إلى تحديد مكان هذه الآية . ومن تحديد المكان وفى ضوء انصراف القوم عن الآية البيانيّة نفهم أنّ الآية المطلوبة مادّيّة وحسّيّة وليست معنويّة . وبشأن تحديد مكان الآية نتبيّن أنّه ذو علاقةٍ بأولى آيات هذه السّورة الكريمة ، بل بأوّل المخلوقات الّتى أشارت إليها تلك الآية . قال تعالى : ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماوات والأرض ﴾ وبطبيعة الحال لا يخرج المكان عن كونه فى السّماء أو فى الأرض . وبما أنّ المكان الّذى يبحث فيه افتراضًا خير خلق الله تعالى عن الآية لا يخرج عن كونه فى السّماء أو فى الأرض ، فإنّ السّياق فى الآية الكريمة يقدّم ذكر الأرض على ذكر السّماء تنبيهًا على حقيقة القدرة المحدودة لهذا العبد الحبيب الّذى اصطفاه الله تعالى بنعمة ختم النّبوّة . إنّ الحديث فى القرآن الكريم إذا كان قد اعتاد تقديم السّماوات على الأرض فى أثناء الحديث عن القدرة المطلقة للذّات العليّة فإنّ الحديث هنا يبدأ بالأرض لأنّها هي الّتى تقع ابتداءً تحت دائرة العبد المحدود القدرة المقهور الإرادة وإن كان خير خلق الله تعالى أجمعين ، وخاتم النّبيّين ، وأشرف المرسلين . وهنا يجيء القول : ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقًا فى الأرض ﴾ والمعنى : فإن استطعت يا محمّد أن تقصد سَرَبًا فى الأرض لتأتيهم بآيةٍ حسّيّةٍ ليؤمنوا بها فافعل . وحينما لا توجد الضّالّة المنشودة فى المكان القريب تتّجه النّيّة فى العادة للبحث عنها فى المكان البعيد . وبما أنّه ليس ثمّة من

مكان سوي الأرض أو السّماء فقد تحوّل السّياق إلى السّماء : ﴿ أو سلّمًا فى السّماء ﴾ والمعنى : فإن لم تجد الآية فى تخوم الأرض فابحث عنها فى معارج السّماء. وفى هذه الحال عليك أن تبتغي أو أن تتّخذ سلّمًا فى السّماء . وقد ارتبط بالأرض القريبة التّناول النّفق فيها أو السَّرَب فيها الّذى قد يكون طبيعيًّا وقد يكون اصطناعيًّا ، وارتبط بالسّماء البعيدة التناول السّلّمّ الّذى يجب أن يكون اصطناعيًا . وبذلك يجتمع للسّماء البعيدة السّلّم الّذى يصعب جعله واتخاذه . وبذلك تتناغم صعوبة السّلّم وبعد السّماء ، وذلك على غرار تناغم سهولة النّفق ، وإن كان اصطناعيّاً بالقياس إلى اتّخاذ السّلّم أو الصّرح لبلوغ أسباب السّماء ، وذلك على غرار تناغم سهولة النّفق وقرب الأرض .

ومع أنّ المعنى : فإن استطعت أن تبتغي نفقًا فى الأرض فتأتيهم بآيةٍ فافعل ، أو أن تبتغي سلّمًا فى السّماء فتأتيهم بآيةٍ فافعل ، فالملاحظ أنّ جملة : ﴿ فتأتيهم بآية ﴾ وقد عرفنا أنّ جملة « تأتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، فالملاحظ أنّ جملة : ﴿ فتأتيهم بآية ﴾ تجىء مضمرةً فى حقّ نفق الأرض ، فى حين تجىء ظاهرةً فى حقّ سلّم السّماء . وهكذا يبدو التّناغم فى قمّته بين السّلّم والسّماء والإتيان .

والمعروف أنّ الشّرط لا يعنى دائمًا تحقيق الأشياء . وإنّ هذه المناسبة تذكّر بمثل قوله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم فى سورة يونس(١) : ﴿ فإن كنت فى شكٍّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الّذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير والحسن البصريّ وقتادة بن دعامة : بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قال : لا أشكّ ولا أسأل(٢) .

إنّ المصطفى ﷺ ما فكّر أساسًا فى أن يأتي بآيةٍ أخرى غير القرآن الكريم الآية العظمى والمعجزة الكبرى الّتى اصطفاه الله تعالى بها . وبناءً على ذلك لا يترتّب

---

(١) الآية ٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٣٢ وتفسير الطّبريّ ١١/١١٦ .

شيءٌ ممّا نصّت عليه الآية الكريمة من ابتغاء نفقٍ في الأرض أو اتّخاذ سلّمٍ في السّماء. وإنّ كلّ المعاني الّتي أفضنا في الحديث عنها يشملها ويشمل كلّ ما عداها من معانٍ أُخَر القول بعد ذلك في الآية الكريمة : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء جَعَلَهُمْ جميعًا مسلمين مؤمنين متّقين لجمعهم على الهدى الّذي بعث به محمّدًا ﷺ . ولكنّه جلّ وعلا لم يشأ . بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى قد هيّأ الإنسان المكلّف لتحمّل المسئوليّة وأرسل رسوله واتّخذ النّاس بمحض إرادتهم الموقف من ذلك الرّسول الكريم بالإيمان أو الكفر ، وهذا الموقف قد سبق إليه علم الله تعالى الّذي ليس للزّمن علاقةٌ به . وقد عبّر عن علم الله تعالى المحيط بالقول : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ .

وهذه الجزئيّة الكريمة كما تشمل كفّار مكّة تشمل سواهم بحيث إنّها تفيد ما يفيده قوله عزّ من قائل في سورة المائدة(١) : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئّكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ومعروف أن لو حرف امتناعٍ لامتناع . بمعنى أنّ جمع النّاس على الهدى لم يتحقّق لأنّ مشيئة الله تعالى ذلك لم تنعقد .

وفي القول : ﴿ فلا تكوننّ من الجاهلين ﴾ نهيٌ للنّبيّ ﷺ ألاّ يعلم عدم مشيئة الله تعالى جمع كلّ النّاس على اتّباعه ﷺ . وبطبيعة الحال لا يتعارض ذلك مع وعد الله تعالى بإظهار هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون . إنّ إظهار دين الإسلام لا ينفي وجود قلّة من أتباع بعض الدّيانات الأخرى .

وإذا كان المصطفى ﷺ يصحّ في حقّه أن يكبر عليه إعراض قومه عنه عليه الصّلاة والسّلام فإنّ وراء ذلك مجموعةً من الأمور الممتنعة في حقّه عليه الصّلاة والسّلام تبدأ بامتناع مجرّد التّفكير في الإتيان بآيةٍ غير القرآن الكريم ويدخل في الأمور الممتنعة تبعًا ابتغاء النّفق في الأرض واتّخاذ السّلّم في السّماء . ويلحق بذلك

---

(١) الآية ٤٨ .

امتناع مشيئة الله تعالى جمع النّاس كلّهم على الهدى ، كما يلحق بذلك امتناع جهل المصطفى ﷺ بتلك المشيئة .

وإذا كان من نصيب المصطفى ﷺ هذه المجموعة من الأمور الممتنعة فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام بقصد حمله على عدم هلاك نفسه لفرط الحزن بسبب انصراف القوم عنه عليه الصّلاة والسّلام ، فإنّ لقومه المنصرفين فى الآية الكريمة التّالية نصيبًا موفورًا من الاستهزاء والتّبكيت . فإلى

الآيــة رقــم (٣٦)

قال تعالى : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يُرْجَعون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون ﴾ تحصر الاستجابة فى الّذين يسمعون ويعون ، وهم المؤمنون . أمّا الكافرون فإنّهم لم يستجيبوا لنداء الحقّ وبالتّالى هم لا يسمعون دعوة الحقّ سماع قبول . وبما أنّ الدّاعي إلى الحقّ هو محمّد بن عبد الله ﷺ ، وقد سمع الدّعوة جميع النّاس ، وقد استجاب المؤمنون لها ولم يستجب الكافرون ، فما نوع السّماع الّذى اتّصف به الكافرون ومن هم الّذين يشتركون فى هذه الصّفة ؟ إنّه السّماع المجرّد الّذى يشترك فيه الإنسان الّذى يسمع مع غير الإنسان الّذى يسمع ، أعنى الحيوان الّذى يقف بسمعه عند السّماع المجرّد . وهذا المستوى من السّماع المجرّد يقف الكافر عنده ولا يتخطّاه ، بمعنى أنّه يسمع ولكن لا يعى ولا يفقه ولا يستجيب . أمّا المؤمن فإنّه يعى ويفقه ويستجيب . وهكذا يتبّين أنّ القول : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون ﴾ بقدر ما هو ثناءٌ على المؤمنين هو ذمّ للكافرين . إنّ المؤمنين تجاوزوا مرحلة السّماع المجرّد إلى مرحلة السّماع الواعى فاستجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ . وإنّ الكافرين وقفوا عند مرحلة

السّماع المجرّد ولم يتعدّوها ، وبذلك كان مستواهم هو مستوى الأنعام الّتى لا تسمع من داعيها ومناديها سوى صوت الدّاعى إن كان قريبًا منها أو نداء الدّاعى إن كان بعيدًا عنها .

بل إنّ الكافرين لينحطّون عن درك الأنعام وقد قال تعالى(١) : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرًا من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

إنّ الكافرين أضلّ من الأنعام سبيلاً لأنّ الأنعام الّتى لا تعقل تحرص بفطرتها وغريزتها على ما ينفعها وتبتعد عمّا يضرُّها . إمّا الكافرون الّذين أكرمهم الله تعالى بالنّعم الّتى لا تُحْصَى وفى مقدّمتها العقل فإنّهم يغالبون فطرتهم ويخالفونها ويحرصون على ما يضرّهم ولا ينفعهم . وهكذا تساوى الكافرون مع الأنعام حينما وقف الكافرون عند مرحلة السّماع المجرّد كالأنعام ، وانحطّ الكافرون عن درك الأنعام لأنّ الأنعام تقف عند مرحلة السّماع المجرّد اضطرارًا على حين يقف الكافرون عند مرحلة السّماع المجرّد اختيارًا . هذا إلى حرص الأنعام على ما ينفعها تمشّيًا مع الغريزة والفطرة ، على حين يحرص الكافرون على ما يضرّهم ولا ينفعهم مخالفين نداء كلٌ من الفطرة والعقل .

وإذا كانت الآية الكريمة قد نزّلت الكافرين منزلة الأنعام فى صدرها : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون ﴾ بسبب إلغاء العقل والانحطاك إلى درك الحيوان الّذى لا عقل له أساسًا فإنّها نزّلت الكافرين منزلة الأموات سكّان القبور فى عجزها : ﴿ والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون ﴾ .

إن الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ الموتى يبعثهم الله تعالى يوم القيامة ثمّ إليه يرجعون لفصل الحساب ونيل الثّواب أو العقاب . والمعروف أنّ الكافرين وقد عطّلوا عقولهم فغدوا كالأنعام بل هم أضلّ لا يؤمنون بالحساب ولا بالثّواب ولا بالعقاب ولا

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

بالبعث بعد الموت . والسّبب فى كلّ ذلك هو أنّهم : ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾[١] ﴿ وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٢] ﴿ وكانوا يقولون أئذا مِتْنا وكنّا ترابًا وعظامًا أئنّا لمبعوثون . أوَآباؤنا الأوّلون ﴾[٣] فالكافرون لا ينكرون الموت بعد هذه الحياة إنّما ينكرون البعث بعد الموت والحساب والجزاء . ولكنّ القرآن الكريم يعتبر هؤلاء الكافرين الّذين لا يستجيبون للإنذار بمثابة الموتي سكّان القبور . إنّ سورة يس تنزّل الّذين يتذكّرون بالقرآن الكريم ويتّعظون منزلة الأحياء . قال تعالى[٤] : ﴿ وما علّمناه الشّعر وما ينبغى له . إنْ هو إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين . لينذرَ مَنْ كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين ﴾ وحينما يكون المؤمنون الّذين يستجيبون لإنذار القرآن الكريم أحياء فذلك معناه أنّ الكافرين الّذين لا يحقّقون فى حياتهم الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو إفراده جلّ وعلا بالعبادة بمنزلة الأموات سكّان القبور . وحينما يفارق الكافرون هذه الحياة الأولى يؤكّد موتهم الحسّيّ موتهم المعنويّ .

وهكذا يتبيّن أنّ آية سورة الأنعام نزّلت الكافرين فى صدرها منزلة الأنعام ، ونزّلتهم فى عجزها منزلة الأموات سكّان القبور . إنّهم خسروا الدّنيا والآخرة . جاء فى سورة الممتحنة[٥] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتولّوا قومًا غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور ﴾ إنّ الكافرين المقبورين قد يئسوا من خير الآخرة إذ تُعْرَض عليهم مقاعدهم من الجنّة لو كانوا آمنوا وما يصيرون إليه من النّار[٦] قال تعالى : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يُرْجَعون ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ١٧١ . (٢) سورة الأنعام ٢٩ .
(٣) سورة الواقعة ٤٧ ، ٤٨ . (٤) سورة يس ٦٩ ، ٧٠ .
(٥) الآية ١٣ . (٦) انظر الجلالين .

والآية الكريمة التّالية تعطى الدّليل على انحطاط القوم إلى درك الأنعام والموتى سكّان القبور فإلى .

الآيـــة رقـــم (٣٧)

قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا نُزّل عليه آيةٌ من ربّه . قُلْ إنّ الله قادرٌ علـى أن ينـزّل آيةً ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

إنّ هؤلاء المكذّبين الجاحدينَ الّذيـن أعرضـوا عـن آيـات الذّكـر الحكيـم البيّنـات قالوا: هلاّ نزّل على محمّد آيةٌ حسّيّة ومعجزةٌ ماديّةٌ من ربّه الّذى يقول إنّـه أرسلـه ، وذلك على غرار عصا موسى ومائدة عيسى وناقة صالح عليهـم جميعًـا صلـوات الله وسلامه . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام ، أن يقول لأولئك المعاندين المتعنّتـين الّذيـن لا تنقصهـم الحجّة ، لأنّه ليس ثمّة حجّةٌ فى الوضوح بمثل مستوى القـرآن الكريـم معجـزة هـذا الدّين البيانيّة ، إنّ الله سبحانه وتعالى قـادرٌ علـى أن ينـزّل آيـةً ولكـنّ أكثر هـؤلاء المعاندين المتعنّتـين اللاّهـين العـابثين لا يعلمـون أنّ فـى نـزول الآيـة الّتـى اقـترحوا أو الآيات هلاكهم واستئصال شأفتهم جريًا على سنّة الله تعالى فى المكذّبين السّابقين . وكيف يكون فى نزول الآية الّتى اقترح كفّار مكّة هلاكهم ؟ إنّ كفّار مكّة لم تكن تنقصهم الحجّة على صدق المصطفى ﷺ وكون القرآن الكريم كلام ربّ العـالمين . وهم أئمّة البيان وأرباب الفصاحة . ومع ذلك فإنّ كفّار مكّة جحدوا هـذه الحقيقـة الّتى استيقنتها أنفسهم وتفوّهت ألسنتهم بغير ما استقرّ فى أعماق قلوبهـم . ومعنـى ذلك أنّ القوم لم تكن تنقصهم الحجّة والبرهان . فإذا كـان للقـوم هـذا الموقـف مـن القرآن الكريم ، كبرى معجزات هذا الدّين ، وهم أرباب الفصاحة ، فهل ينتظر من القوم أن يتغيّر موقفهـم حينمـا تتحقّق الآيـات الحسّيّة الّتى اقـترحوا بباعث اللّهـو

والعبث ، العناد والتعنّت ؟ إنّ تغيير الموقف لا ينتظر من القوم . وهب أنّ الآية الحسّيّة أو الآيات قد تحقّقت بناءً على طلبهم ولكنّهم لم يؤمنوا فما الّذى يترتب على ذلك ؟ يترتّب على ذلك هلاكهم واستئصال شأفتهم ، فتلك سنّة الله تعالى مع المكذّبين السّابقين الّذين يصرّون على الكفر بعد تحقّق الآية الّتى اقترحوا ، بأن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر ولا يؤخّرون لتوبة ولا يُنْظرون لمعذرة ، باستثناء قوم يونس عليه السّلام الّذين رفع الله تعالى عنهم العذاب لمّا آمنوا على نحو ما بيّنت سورة يونس(١) عليه السّلام . إنّ الله سبحانه وتعالى قد سبق علمه الّذى ليس للزّمن علاقةٌ به إلى هذا الموقف الّذى سيقفه كفّار مكّة من الآية أو الآيات الحسّيّة المقترحة لو تحقّقت . وإنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليعذّب كفّار مكّة فى الوقت الّذى يكون فيه المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهِمْ وفى الوقت الّذى يستغفرون الله تعالى . قال تعالى(٢) : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ فما المطلوب من كفّار مكّة الّذين يهرفون بما لا يعرفون ؟ أن يتركوا العناد وأن يهجروا الجحود وأن يستجيبوا لنداء الفطرة وأن يكون ما يتفوّهون به منسجمًا مع ما يعتقدون به فى أعماقهم من صدق المصطفى ﷺ وكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين . إنّهم فى هذه الحال يكونون جزءًا لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وفى هذه المعاني إليك هذه الآيات الكريمات من سورة الحِجْر(٣) قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذى نُزّل عليه الذّكرُ إنّك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون ﴾ .

إنّ على كفّار مكّة أن يبادروا إلى اعتناق دين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى من بشرٍ دينًا سواه ، وأن يعلموا بأنّهم مسافرون إلى الله تعالى ومحشورون ، مجموعون بين يديه يوم القيامة وموقوفون لفصل الحساب . إنّ كلّ الخلائق محشورةٌ

---

(١) الآيات ٩٦ — ٩٨ . (٢) سورة الأنفال ٣٣ . (٣) الآيات ٦ — ٩ .

إلى الله تعالى وليس الإنس وحدهم وفيهم كفّار مكّة . وإلى هذه المعاني أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيــة رقــم (٣٨)

قال تعالى : ﴿ وما من دابّةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلاّ أممٌ أمثالكم ما فرّطنا فى الكتاب من شيءٍ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ .

فى أسلوب القصر تقرّر الآية الكريمة أنه ما من دابّةٍ فى الأرض ، تدبّ فوقها وتمشي عليها ، وليس من طائرٍ يطير بجناحيه فى جوّ السّماء إلاّ أممٌ أمثالنا ، قد تكفّل الله تعالى برزقها وتدبير أحوالها . إنّ الله سبحانه وتعالى ما فرّط فى اللّوح المحفوظ من شيء ، ولا ترك فى أمّ الكتاب من شيء . ثمّ إلى ربّهم جميعًا يحشرون ويرجعون بالموت . ويجتمعون ويقفون يوم القيامة للحساب فالثواب أو العقاب

والدّابّة : كلّ ما يدبّ على ظهر الأرض ويتحرّك . والدّبّ والدّبيب مشيٌ خفيف ويستعمل ذلك فى الحيوان وفى الحشرات أكثر[١] وإنّه بالنّظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة النّور[٢] قال تعالى : ﴿ والله خلق كلّ دابّةٍ من ماء . فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ يتبيّن أنّ الآية الكريمة تشمل كلّ ما يدبّ على الأرض بما فى ذلك الإنسان . وإنّه بالنّظر إلى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأنعام يتبيّن أنّها وهي الّتى تخاطب الإنسان وتحدّثه عن علمه جلّ وعلا المحيط وقدرته المطلقة تشمل كلّ ما يدبّ على الأرض باستثناء الإنسان ، مع العلم بأنّ الإنسان يأتى على رأس قائمة ما يدبّ على الأرض ، وقد قال عزّ من قائل[٣] :

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « دبّ » ١٦٤ .   (٢) الآية ٤٥ .

(٣) سورة الإسراء ٧٠ .

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ وما من دابّةٍ فى الأرض ﴾ أنّه يشمل كلّ ما يدبّ على هذه الأرض سواءٌ كان فى برٍّ أو بحر . ونستطيع أن نفهم كذلك من القول : ﴿ ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ أنّه يشمل كلّ ما يطير فى جوّ السّماء بجناحيه دليلاً على القدرة المطلقة للذّات العليّة وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ ألم يروا إلى الطّير مسخّرات فى جوّ السّماء ما يمسكهنّ إلاّ الله . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾.

ومن البيّن علاقة ما دبّ بالأرض وما طار بالسّماء . وإنّ فى الحديث عمّا له علاقةٌ بالأرض والسّماء جذباً لا نتباهنا إلى أولى آيات السّورة الكريمة الّتى تنصّ على خلق الله تعالى السّماوات والأرض باعتبارهما أكبر مخلوقات الله تعالى على التّوالى ، وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ لَخَلْقُ السّماواتِ والأرض أكبرُ مِنْ خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

إنّ ما يدبّ فى الأرض بعضٌ من خلق الله تعالى ممّا يمشى على الأرض . ويلاحظ أنّ حرف الجرّ ﴿ فى ﴾ هو الّذى يُستعمل هنا وليس حرف الجرّ ﴿ على ﴾ وكأنّ حرف الجرّ ﴿ فى ﴾ يشير إلى سعة هذه الأرض بقدرة الله تعالى بحيث إنّ الأرض تلبّى حاجة كلّ دابّةٍ بإذن الله تعالى ، وإنّ كلّ دابّةٍ مهما يكن نشاطها يَسْتَنفِد أيّ جزءٍ من الأرض تدبّ فيه كلّ طاقتها .

وإنّ ما يطير فى جوّ السّماء بعضٌ مِنْ خلق الله تعالى ممّا يطير فى جوّ السّماء بجناحيه . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا تكتفى بلفظة طائر وحدها ، مع أنّ أهمّ صفات الطّائر أنّه يطير ، كما أنّها لا تكتفى بعد ذلك بجملة يطير ، مع العلم بأنّ الطّائر إنّما يطير بجناحيه ، إنّما الّذى يجىء فى الآية الكريمة يشمل جملة يطير وذكر الجناحين الخاصّين بكلّ طائر . قال تعالى : ﴿ وما من دابّةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ .

---

(١) سورة النّحل ٧٩ .

(٢) سورة غافر ٥٧ .

ونستطيع أنّ نفهم من ذكر الطّيران بالجناحين فى الجزئيّة الكريمة وعدم الاكتفاء بلفظ الطّائر أنّ من أهداف التفصيل التنبيه إلى عجيبة طيران هذا المخلوق الضّعيف بالقياس إلى الكثير ممّا يدبّ على الأرض ، والتّنبيه إلى عظيم قدرة الله تعالى الفعّال لما يريد . وكأنّ لسان حال الجزئيّة الكريمة يلفت الانتباه إلى مثل قوله عزّ من قائل فى سورة الملك(١) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطّير فوقهم صافّاتٍ ويقبضن ما يمسكهنّ إلاّ الرّحمن . إنّه بكلّ شيءٍ بصير ﴾ ولا يتّسع المقام للحديث عن بعض عجائب عالم النّحل وعالم الطّير . ما أكبر مجموع الأميال الّتى تقطعها النّحلة وهي ترشف رحيق الزّهور حتّى تخرجه عسلاً مختلفًا ألوانه فيه شفاءٌ للنّاس من بعض الأمراض مصداقًا لقول الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿ وأوحى ربّك إلى النّحل أن اتّخذى من الجبال بيوتًا ومن الشّجر وممّا يَعْرِشون . ثمّ كلى من كلّ الثّمرات فاسلكى سبل ربّك ذُلُلاً يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للنّاس . إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون ﴾ وما أكبر مجموع الأميال الّتى تقطعها الطّيور فى هجراتها الموسميّة عبر الأودية والصّحارى والبحار والمحيطات والقارّات . ومن أعجب ما نبّه عليه المختصّون أنّ جماعاتٍ من الطّيور تقوم بهذه الرّحلات العجيبة لأوّل مرّة وبدون سابق علم ووفق خطٌّ واحدٍ محدّد تعتاد سلوكه بقيّة الطّيور فى هجراتها . وقد حَدَتْ هذه الحقيقة ببعضهم ، فى التّنبيه على عظيم قدرة الخلاّق العظيم ، إلى أنّ هذه الطّيور تولد ولديها بالوراثة هذه الخرائط للطّيران ، وكأنّ هذه الطّيور قد ولدت مشتملةً بإرادة الله تعالى على ما يشبه هذه الخرائط المبرجة بما يشبه الحاسب الآليّ . وأنتهز هذه المناسبة كي أنبّه على كشفٍ علميّ يعتبر من أعظم الاكتشافات العلميّة المؤكّدة لإعجاز مثل قوله عزّ من قائل فى سورة النّجم(٣) : ﴿ وأنّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى . من نطفةٍ إذا تمنى ﴾ وهذا الكشف العلميّ هو ما يمكن أن يسمّى شفرة الحياة . وهذه الشّفرة تتألّف من حروفٍ أربعةٍ أو رموزٍ أربعة تتألّف منها كلّ

---

(١) الآية ١٩ . (٢) سورة النّحل ٦٨ ، ٦٩ . (٣) الآية ٤٥ ، ٤٦ .

الكائنات الأرضيّة الحيّـة ابتـداءً مـن الفـيروس والميكـروب وانتهـاءً بـالقرد والحصـان والإنسان . وهذا الكشف العلميّ فاز به صاحباه ، وهما أستاذان أحدهما بيولوجـي والآخر فيزيائيّ بجائزة نوبل فى النّصف الثّانى من القرن العشرين(١) وما الّذى يمكـن أن يقال وراء إثبات هذين العالمين الفذّين أنّ رأس الحيوان المنويّ الواحد يحتوى على أربعة آلاف مليون شفرة أو حرفٍ من الحروف الأربعة ، وأنّ البويضـة تحتوى هـي الأخرى على أربعـة آلاف مليـون شـفرة أو حـرفٍ مـن الحـروف الأرْبعـة ، فـإذا تمّ التّلاقح اشتملت على ثمانية آلاف مليون شفرة أو حرف ! إنّ كـلّ شـفرة أو حـرفٍ من الحروف الأربعة يرمز لمركّب كيمـائي ، وهـذه الحـروف الأربعـة تصطـفّ وفـق نظامٍ ثابتٍ وبديع ، فالحرف (أ) يقع دائمًا بجوار الحرف ج والحرف ب يقع دائمًـا بجوار الحرف د . وتكوّن هذه الحـروف مـا يشبه السّـلّم الحـلزونّي . بقـي علينـا أن نعرف أنّ الحيوان المنويّ للإنسان وكذلك البويضة يحتوى كـلٌّ منهمـا علـى حـوالِي المتر الواحد من هذه الأشرطة !!! وها هي ذى خلايا النّطفة الّتى جاء فيها قول الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿ من نطفةٍ خلقه فقدّره ﴾ تموج بملفّاتٍ تحتوى على بحـرٍ هـائلٍ مـن المعلومات . فلو أنّنا سجّلناها بنفس حروف لغتنا ، أو على هيئـة شـفرة تتكـوّن مـن شرطةٍ ونقطةٍ لملأت عدّة مجموعاتٍ فى حجم مجموعة دائرة المعارف البريطانّية المؤلّفة من ٢٤ مجلّدًا !(٣) إنّ من العلماء من ذهب إلى أنّ هذه الطيور الّتى تهاجر لأوّل مرّة دون قائدٍ أو دليل حينما ولدت كان قـد جـاء معهـا مـا يشبه الخرائـط المبرمجـة بيـد الفعّال لما يريد الرّحمن الّذى ما ترى فى خلقـه جـلّ وعـلا مـن تفـاوت . ولعلّـك لم يخف عليك ، حينما ترى سربًا من الطّير محلّقًا فى جوّ السّماء ، شكله المثلّث الممثّـل لأقل الاحتمالات اصطدامًا بالهواء . بقـي علينـا أن نعـرف أنّ الطّيـور فـى هجرتهـا تتبادل المراكز فما كان فى المقدّمـة وقتًـا يتحـوّل إلى المؤخّـرة كـي ينـال قسـطًا مـن

---

(١) انظر هنا مجلّة الضّياء الإماراتيّة . العدد الثّالث عشر من السّنة الرّابعة ٤٨ ـ ٦٢ .
(٢) سورة عبس ١٩ .   (٣) مجلّة الضّياء ٥٩ .

الرّاحة . أمّا في حالة التّعب الشّديد والحاجة إلى نيل قسطٍ من الرّاحة فإنّ مكان هذا الفريق من الطّير هو الطّابق الثّاني أو الدّور العلويّ أعني أن يتحوّل ذلك الفريق من الطّير إلى الأعلى كي يكون شبه محمول بضربات أجنحة الفريق من الطّير العامل في الطّابق الأرضيّ أو الدّور السّفليّ . حتّى إذا نال فريق الطّابق العلويّ حظّه من النّوم وقسطه من الرّاحة تحوّل إلى الطّابق الأرضيّ أو الدّور السّفليّ كي يحلّ الفريق الآخر مكانه وهكذا دواليك حتّى يقطع السّرب كلّه المحيط مثلاً دون أيّ هبوطٍ ، لأنّ الهبوط معناه الغرق في الماء ! قال عزّ من قائل(١) : ﴿ قال فمن ربّكما يا موسى . قال ربُّنا الّذى أَعْطَى كلّ شيء خَلْقَه ثمّ هدى ﴾ .

ووراء ذلك فإنّ القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين ووفق طرائق العرب في تعبيرها يسير في القول : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وفق طريقة العرب في تأكيد الكلام في مثل القول : كلّمت فلانًا بفمي ومشيت إليه برجلي وضربته بيدي(٢) . وإنّ الآية الكريمة حينما تنصّ على أنّ كلّ جنسٍ يدبّ في الأرض وكلّ جنسٍ يطير في جوّ السّماء بجناحيه إنّما هو أمّةٌ قائمةٌ بذاتها وذلك على غرار الإنس مثلاً والجنّ ، وإنّ العلم الحديث حينما يكتشف ذلك أخيرًا ، فإنّ في نصّ القرآن الكريم على هذه الأنواع المختلفة من الأمم مظهرًا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

وفي القول : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ إشارةٌ إلى علم الله تعالى المحيط وقدرته جلّ وعلا المطلقة . إنّ العلم مظهرٌ من مظاهر القدرة . وإنّ هذه القدرة تتأكّد في الجزئية الكريمة الأخيرة : ﴿ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ إنّ هذه الأمم كلّها تحشر إلى ربّها جلّ وعلا ، بالموت أوّلاً ، وبالحساب آخرًا . روى الإمام أحمد عن أبي ذرّ أنّ رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : يا أبا ذرّ، هل تدري فيم تنتطحان ؟ قال : لا . قال : لكنّ الله يدري وسيقضي بينهما(٣) .

---

(١) سورة طه ٤٩ ، ٥٠ . (٢) تفسير الطّبريّ ٧ / ١٢٠ . (٣) تفسير ابن كثير ٢/١٣١ .

ومّما يلفت النّظر فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة لفظ الرّب المّتصل به ضمير جمع الغائب العائد إلى تلك الأمم : ﴿ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ ومن أهمّ متعلّقات استعمال لفظ الرّب فى القرآن الكريم إفادة الخصوص من ناحية ، وإشاعة جوّ الرّحمة والودّ من ناحيةٍ أخرى ، بالتّنبيه إلى تربية الله تعالى الخلق بالنّعم والآلاء ووجوب إفراده جلّ وعلا بالعبادة . إنّ هذه الأمم تحشر إلى ربّها البرّ الرّحيم . وإنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يعلموا أنّهم كذلك سوف يبعثون ويجتمعون بين يدي الله تعالى لفصل الحساب فعليهم أن يعودوا إلى جادّة الصّواب قبل فوات الأوان . وهكذا نتبيّن حديث الآية الكريمة عن يوم القيامة ، ولكّن كفّار مكّة مصرّون على التّكذيب والجحود ، وإنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن أهمّ صفات المكذّبين ومسئوليّة كلّ إنسانٍ عمّا يأتى من شرٍّ أو خير فإلى

الآيــة رقــم (٣٩)

قال تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا صمٌّ وبكمٌ فى الظّلمات . من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ .

وصف السّياق من ذى قبل المكذّبين الجاحدين بأنّهم لا يسمعون سماع قبول وذلك بسبب تعطيلهم نعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليهم فانحطّوا إلى درك الأنعام الّتى تشترك معهم فى مرحلة السّماع المجرّد ، وانحطّوا عن دركها لأنّ الأنعام لا عقل لها أصلاً فى حين يعطّل الكافرون نعمة العقل ويعملون بعكس ما يقتضيه المنطق المستقيم والعقل السّليم . لقد نزّل السّياق الكافرين منزلة الموتى سكّان القبور لأنّهم لم يحقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو إفراده جلّ وعلا بالعبادة . وتؤكّد الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تلك المعاني فى حقّ المكذّبين للرّسول الكريم ﷺ ، الجاحدين آيات الله تعالى . إنّ السّياق إذا كان من ذى قبل

قد نفى عن المكذّبين صفة السّماع الواعى وبذلك أثبت لهم ضمنًا صفة السّماع المجرّد الّذى يشترك فيه من يعقل وما لا يعقل ثمّ يفترقان بأن يقف غير العاقل حيث هو فى حين يتحوّل من نوّر الله تعالى قلبه إلى مرحلة السّماع الثّانية فإنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ المكذّبين قد انحطّوا عن درك مرحلة السّماع المجرّد إلى درك الصّمم بمعنى فُقدان حاسّة السّمع بالكلّيّة(١) .

وقد جرت العادة بأنّ من ولد أصم يولد أبكم . والمعنى أنّ هؤلاء المكذّبين صمٌّ عن سماع الحقّ بكمٌ عن النّطق به . قال تعالى : ﴿ صمٌّ بكم ﴾ إنّ المكذّبين بسبب عدم استعدادهم مطلقًا لسماع الحقّ سماعًا مجرّدًا ، فضلاً عن الاستماع له سماع قبول، ينزّلون منزلة من لا يسمع أصلاً ومن وُلِد أصمّ . وما دام الكافرون ليسوا مستعدّين لسماع الحقّ أصلاً فمن باب الأولى ألاّ يكونوا مستعدّين للنّطق به وإعلانه والدّعوة إليه .

وما دمنا فى حقيقة الأمر أمام صمٍّ عن سماع دعوة الحقّ وبكمٍ عن النّطق بكلمة الحقّ وبذلك نحن لسنا بصدد الصَّمَم والبَكَم الحسّيّين فما هي عاقبة كلّ أصمّ عن سماع الحقّ أبكم عن النطق به والدّعوة إليه ؟ العاقبة أنّه يكون والعياذ با لله فى ظلمات الكفر والشّرك والشّكوك والرّيب وما إلى ذلك . وما دمنا بصدد الصّمم والبكم وهما صفتان للمحسوسات أصلاً وللمعنويّات تبعًا فما هي اللّفظة فى المحسوسات الّتى تؤدّى إلى عدم إبصار النّور وإلى الحياة فى الظّلمات والّتى تتجانس مع صفتي الصّمم والبكم؟ إنّها لفظة : « العُمَى » الّتى تدلّ على عمى الأعين إثر الصّمم والبكم والعياذ بالله ، وقد جاء فى هذا المعنى مثل قوله تعالى(٢) : ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ وقوله تعالى(٣) : ﴿ ومَثَلُ الّذين كفروا كمثل الّذى يَنْعِق بمالا يَسْمعُ إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صمم » ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة ٨ . (٣) سورة البقرة ١٧١ .

ومن البيّن أنّ العمى أساسًا فى المحسوسات ، فهؤلاء العُمي لا يبصرون بمعنى أنّه لديهم أساسًا العين المبصرة القادرة على تحويل النّور المتحوّل إليها من المرئيّات إلى صورة . ومن البيّن كذلك أنّ العمى يستعار فى المعنويات . والمراد عَمَى البصائر والعياذ بالله . إنّ عُمْيَ البصائر لا يبصرون نور الحقيقة لأنّهم ليس لديهم الوسائل الصّحيحة الّتى يعرفون بها صحيح القول وأحسن الحديث فيتّبعوه . إنّ أبصارهم كليلة ، وإنّ سمعهم معطّلٌ كبصرهم . والسّبب فى ذلك أنّهم عطّلوا عقولهم عن العمل الصّحيح وعن القيام بالدّور الّذى نيط بها . قال تعالى[١] : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ .

إنّ نتيجة عمى العيون عدم إبصار النّور فى المحسوسات . وإنّ نتيجة عمى البصائر عدم إبصار نور الحقائق والعياذ بالله . لقد عبّرت الآية الكريمة عن عمى البصائر بالقول : ﴿ فى الظّلمات ﴾ وإنّ لهذا القول دوراً فى الجزئيّة الكريمة : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا صمٌّ وبكمٌ فى الظّلمات ﴾ وتفسير ذلك أنّ أعمى البصيرة يعيش فى أنواع من الظّلمات لا حصر لها فى حين يعيش الأعمى حسًّا فى نوعٍ واحدٍ من الظّلمات . وبهذا يكون القول : ﴿ فى الظّلمات ﴾ قد صرف القول : ﴿ صمٌّ وبكمٌ ﴾ من جانب الحسّ إلى جانب المعنى . وممّا هيّأ لتحوّل الصّمم والبّكم إلى المعنويات القول فى الآية الكريمة : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا ﴾ وهكذا يكون القول : ﴿ صمٌّ وبكم ﴾ قد جاء من بين يديه القول الموجّه له من الحسّىّ إلى المعنوى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا ﴾ وجاء من خلفه التّعبير المعنويّ الخالص وذلك فى القول : ﴿ فى الظّلمات ﴾ بدلاً من القول : « وعُمْي » الّذى يعتبر شركةً بين الحسّىّ والمعنوي وذلك على غرار القول : ﴿ صمٌّ وبكم ﴾ .

وتعبيرًا عن مسئوليّة كلٍّ عمّا يفعل من شرّ أو خير يجيء القول : ﴿ من يشأ الله

---

(١) سورة الحجّ ٤٦ .

يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ ونستطيع أن نفهم القول : ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ فى ضوء مثل قوله تعالى(١) : ﴿ وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون . ونجّينا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾ إنّ المكلّفين من ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام قد أنعم الله تعالى عليهم بالنّعم الّتى لو أحسنوا استثمارها لقادتهم إلى اتبّاع الهدى الّذى بعث الله تعالى به صالحًا عليه السّلام إليهم . فمعنى : ﴿ فهديناهم ﴾ فأرسلنا إليهم من يهديهم إلى الصّراط المستقيم والإرشاد إلى الطّريق القويم . وحينما استحبّوا العمى على الهدى وأصرّوا على الضّلال زادهم الله تعالى ضلالاً . قال تعالى : ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ .

ونستطيع أن نفهم القول : ﴿ ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ فى ضوء مثل قوله تعالى(٢) : ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم ﴾ وقوله تعالى(٣): ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

ويتحوّل السّياق إلى إعطاء المكذّبين الجاحدين الدّليل على عجز الآلهة المزعومة وعلى القدرة المطلقة للفعّال لما يريد جلّ وعلا ، وذلك فى الآيتين الكريمتين التاليتين وهما .

الآيتان (٤٠ و٤١)

قال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة أَغَيْرَ الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ .

تأمر أولى الآيتين الكريمتين المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين : أخبرونى أيّها المشركون مع الله تعالى سواء إن أتاكم عذاب الله تعالى عاجلاً فى هذه الحياة الدّنيا

---

(١) سورة فصّلت ١٧ ، ١٨ .   (٢) سورة محمّد ١٧ .   (٣) سورة العنكبوت ٦٩ .

أو أتتكم السّاعة وقامت القيامة أغير الله تعالى من الآلهة الّتى تشركون مع الله تدعون وإليها تلجأون وتضرعون إن كنتم صادقين أنّ هذه الآلهة المزعومة تنفع أو تضرّ(١) .

والآية الكريمة الأخرى تبدأ ببل الّتى تفيد الإضراب وتقرّر أنّ المشركين لا يدعون إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له لأنّه هو وحده لا شريك له الّذى يكشف السّوء ويرفع الضّرّ إن شاء وليس الآلهة المزعومة الّتى لا تملك لأنفسها فضلاً عن غيرها نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا . وما معنى اتّجاه المشركين بالدّعاء بكشف الضّرّ إلى الله تعالى وحده لا شريك له ؟ معناه أنّهم يتركون الآلهة المزعومة إلى درجة نسيان تلك الآلهة وكأنّها غير موجودةٍ أصلا . ومعناه أيضًا أنّ المشركين غير صادقين فى ادّعائهم أنّ الآلهة المزعومة تنفع وتضرّ.

ويلفت النّظر بشأن هذه الآية الكريمة الأخرى مجىء الجمل غالبًا فى الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدّد والاستمرار . إنّ المشركين لا يدعون إلاّ الله تعالى ما دامت الشّدّة قائمة . وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء إن شاء . وإنّ الكافرين ينسون آلهتهم المزعومة كلّ وقتٍ تصادفهم فيه شدّة ويقعون فى ورطة .

ويلفت النّظر بشأن الآية الكريمة الأولى كذلك مجىء جملة « أتى » مرّتين اثنتين : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة ﴾ وقد عرفنا أنّ جملة « أتى » لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّماني أو المكانيّ أو المعنويّ . وقد عرفنا كذلك أنّ القول : ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ يتعلّق بالعذاب فى هذه الحياة الأولى ، وأنّ القول : ﴿ أو أتتكم السّاعة ﴾ يتعلّق بقيام السّاعة ومجىء يوم القيامة . ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ أو أتتكم السّاعة ﴾ أنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها ولكن بعد حين . وبهذا يتبيّن أنّ التّعامل مع جملة : « أتى » بشأن يوم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧ / ١٢٢ .

القيامة، أسهل وأقرب . فما الّذى يمكن أن يستفاد من البعد الّذى تفيده جملة : « أتى » بشأن عذاب المشركين فى الحياة الأولى الّذى أشار إليه القول : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ يمكن أن يستفاد من جملة : ﴿ أتى ﴾ الّتى تفيد هنا البعد الزّماني رحمة الله تعالى الواسعة الّتي شملت أولئك المشركين والّتى سبقت غضبه جلّ وعلا . إنّ عذاب الله تعالى إن شاء عزّ وجلّ أن يحلّ بالمشركين فإنّه سيحلّ بهم ، برحمةٍ من الله تعالى وفضلٍ ، ليس على الفور ولكن على التّراخى ، وذلك بعد أن يفوّت المشركون كلّ الفرص ، وبعد أن يظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً . فعلى كفّار مكّة فى المقام الأوّل أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وأن يعودوا إلى الله تعالى ويتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحا . ونستذكر بهذه المناسبة هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال(١) : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ إنّ ثمّة سببين يحولان بين عذاب الله تعالى أن يأخذ كفّار مكّة أخذاً أليمًا وشديدا . السّبب الأوّل هو كون المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهم ، وقد أكرم الله تعالى به ﷺ قومه الكافرين فكيف بالمؤمنين . والسّبب الآخر هو كون كفّار مكّة يستغفرون الله سبحانه وتعالى الّذى يعلمون أنّه هو وحده لا شريك الله الّذى يغفر الذّنب ويقبل التّوب . أمّا الآلهة المزعومة فإنّهم ما يعبدونها ويشركونها مع الله تعالى فى العبادة ، كما جاء على لسانهم : ﴿ إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى ﴾(٢) وممّا يعمّق الدّور العظيم لجملة : « أتى » فى الموضعين فى تحذير المشركين من إساءة فهم الإمهال لهم والإملاء والاستدراج الآيات الأربع التّاليات الّتى تذكر المصير السّيّئ للمكذّبين السّابقين الّذين نسوا الله تعالى والّذين قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان الرّجيم ما كانوا يعملون من سيّئات . وهذه هي .

---

(١) الآية ٣٣ .

(٢) سورة الزّمر ٣ .

الآيــات رقــم (٤٢ ـ ٤٥)

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّـرّاء لعلّهـم يتضرّعون . فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلمّا نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبـواب كـلّ شـيءٍ حتّـى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسـون . فقُطِعَ دابرُ القـوم الّذيـن ظلمـوا . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

من البيّن أنّ الآيات الكريمـات فـي تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنـه وتثبيـت فؤاده ﷺ وأفئدة الفئة المؤمنة القليلة العدد آنـذاك بالقيـاس إلى الفئـة الكـافرة آنـذاك الّتى كان لها وقتها الكلمة العليا واليد الطّولى . وما أشدّ حاجة المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة فى هذه الفترة المكّيّة إلى هذه المعاني .

ونستطيع أن نفهم أنّ الآيات الكريمات الأربـع هنـا تفصيـلٌ لمعنـى هـاتين الآيتـين الكريمتين من سورة آل عمران المدنيّـة . قـال تعـالى(١) : ﴿ لا يغرّنّـك تَقَلّـبُ الّذيـن كفروا فى البلاد . متاعٌ قليلٌ ثمّ مأواهم جهنّم وبئـس المهـاد ﴾ ونستطيع أن نفهـم كذلـك أنّ الآيـات الأربـع الكريمـات الّتـى تتحدّث عـن المصير الأليـم للمكذّبـين السّابقين الّذين ظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً إنّما تتحدّث كذلك عن كفّار مكّة المكذّبين للمصطفى ﷺ الّذين أساءوا فهم الإمهال والاستدراج . إنّ لله تعالى سـننًا ونواميس لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تحابى أحـدًا . وإنّ مـا صادفـه المكذّبـون السّـابقون سوف يصادفه كفّار مكّة إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان . ومـا معنـى أخـذ الله تعالى المكذّبين أخذ عزيزٍ مقتدر ؟ معناه نصر الله تعالى جنده رغم قلّتهم وذلّتهم .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قـد أرسـل إلى أمـمٍ مـن قبلـك أيّهـا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وبعث رسًلا فكذّبهم أقوامهم كما كذّبـك قومـك يـا

---

(١) سورة آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧ .

محمّد فأخذهم الله تعالى العزيز الجبّار المنتقم بالبأساء وشدّة الفقر والفاقة ، وقوّة الضّنْك والحاجة ، كما أخذهم بالضّرّاء وكثرة الأسقام وشدّة الأمراض ، لعلّهم يتضرّعون إلى الله تعالى ويتذلّلون ، يخضعون لله تعالى ويخبتون ، يتوبون إلى الله تعالى ويستغفرون . ويلاحظ التّرتيب الطّبيعيّ لكلٍّ من البأساء والضّرّاء . لقد جرت العادة بأن يتقدّم الفقر والجوع وأن يتبع ذلك الأمراض والأوصاب . وإنّ الآية الكريمة قد نبّهت على هذا التّرتيب ، كما نبّهت على عميق غفلة القوم وعلى غبائهم . إنّ القوم المكذّبين فهموا الجوع والمسغبة وانقطاع القطر وجدب الأرض ، على غرار ما يفهم المغفّلون اليوم البعيدون عن الله تعالى ، بأنّها ظواهر طبيعيّة وأمور عرضيّة . إنّ هؤلاء القوم ليس فى معجمهم العلميّ مثل هذه المعاني المستفادة من قوله تعالى ـ مثلاً ـ فى سورة الجنّ[1] : ﴿ وألَّوِ استقاموا على الطّريقة لأسقيناهم ماءً غدقًا ﴾ ومن قوله تعالى على لسان هودٍ عليه السّلام يخاطب عادًا قومه فى سورة هود[2] : ﴿ ويا قوم استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يُرْسل السّماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين ﴾ .

إنّ الكافرين فى كلّ وقتٍ لا يدركون تلك المرامي القصيّة ، وإنّ كفّار مكّة ليضربون المثل الحيّ على تلك الغفلة وذلك الغباء . إنّ كفّار مكّة يشكّون فى البعث ويستهزئون بالمصطفى ﷺ فقال : اللّهمّ أعنيّ عليهم بسبعٍ كسبع يوسف . والمراد السّبع السّنين العجاف الّتى أكلت ما ادّخر النّاس من الحبوب فى سبع سنى الرّخاء السّابقة . وإلى سبع سنى الرّخاء وسبع سنى الشدّة وعام الغيث والخير جاء على لسان يوسف عليه السّلام فى تعبيره رؤيا الملك قوله عز من قائل[3] : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دَأَبًا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون . ثمّ يأتى من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تُحْصِنون . ثمّ يأتى من ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس وفيه يَعْصِرون ﴾ قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه :

---

(١) الآية ١٦ . (٢) الآية ٥٢ . (٣) سورة يوسف ٤٧ ـ ٤٩ .

إنّ قريشًا لـمّا أبطأت عـن الإسـلام واستعصت على رسـول الله ﷺ دعـا عليهـم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتّى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السّماء فلا يرون إلاّ الدّخان . وفى رواية : فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى مـا بينه وبينهـا كهيئـة الدّخـان مـن الجهـد . قـال الله تعـالى : ﴿ فارتقب يوم تأتى السّماء بدخانٍ مبين . يغشى النّاس هذا عذابٌ أليـم ﴾ . فـأُتِي رسـول الله ﷺ فقيـل لـه يـا رسـول الله : استسـق الله لمضـر فإنّهـا قـد هلكـت فاستسقى ﷺ لهم فسقوا فنزلت : ﴿ إنّا كاشفو العذاب قليلاً إنّكم عائدون ﴾(١) .

وكما أساء الكافرون أجمعون فهم الجوع فقالوا إنّ الدّهر تـاراتٌ وتـارات ، فـى بعض المرّات يسرّ وفى بعض المرّات يسوء ، أساءوا فهم الأمراض والأوصاب ، فلـم يتضرّعوا إلى الله تعالى ولكن قست قلوبهم وكانوا أداةً طيّعـةً فـى يـد اللّعين . قـال تعـالى : ﴿ ولقـد أرسـلنا إلى أمـمٍ مـن قبلـك فأخذنـاهم بالبأسـاء والضّـرّاء لعلّهـم يتضرّعون . فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعلمون ﴾ .

إنّ المنتظر من الأناس الّذين نوّر الله سبحانه وتعالى بصائرهم أن يسألوا الله تعالى أن يدفع عنهم البأساء ويرفع الضّرّاء ، وأن تلين قلوبهم وترقّ أفئدتهم ، وأن يتذلّلـوا لله تعالى ويتضرّعوا . والعجيب فى الأمر أنّ القوم أتوا غير المطلـوب منهـم والمتوقّـع تمامًا ، فها هي ذى بصائرهم تزيد عمىً إلى عماها ، وها هي ذى قلوبهـم بـدلاً مـن أن تلين تقسو حتّى غدت كالحجارة أو أشدّ قسوة . ومن الطبيعيّ أن يزيّن الشّيطان الرّجيم لهم ما كانوا يعلمون وما كانوا يأتون من قبيح الأفعال والأقوال .

أما وقد نسي القوم ما ذُكّروا بـه ، وازداد حـالهم سوءًا ، وقلوبهـم قسـوة ، ولم تنفعهم الموعظة ، ولا أمل فى صلاحهم وعودتهم إلى جادّة الصّـواب فقـد مكـر الله سبحانه وتعالى بهم ، وأملى لهم ، واسـتدرجهم مـن حيـث لا يعلمـون . وإلى هـذه

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٨/٤ فى أثناء تفسير الآيات ٩–١٦ من سورة الدّخان .

المعاني أشارت الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيءٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون ﴾ .

إنّ القوم حينما نسوا تمامًا ما ذكّروا به ووعظوا على لسان رسول الله تعالى إليهم فتح الله سبحانه وتعالى لهم كلّ أبواب الصّحّة والرّزق والمنافع والخيرات . ولمّا كانت الحصيلة جيّدة في كلّ شيءٍ ، وتفوّقوا في مجال المادّة والحياة الدّنيا ، ولمّا كان قد سبق إلى رُوعِهِمْ أنّ التّفوّقَ الّذي حصلوا عليه ، رغم خروجهم الصّريح والمعلن على تعاليم السّماء ، راجعٌ إلى عبقريّاتهم الفذّة ونبوغهم الفريد ، وذلك على غرار ما نتبيّن اليوم لدى الكثير من أمم الأرض الّتي احتضنت المنهج العَلمانيّ أو الّلادينيّ ، فقد استبدّ بالقوم فرح الأشر والبطر وازدراء الدّين واحتقار الرّسل .

وإنّ القول في الآية الكريمة : ﴿ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ قوّةٌ للقول في صدر الآية الكريمة : ﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء ﴾ لأنّ جملة المبني للمفعول : ﴿ أوتوا ﴾ تفيد أنّ كلّ ما وصل إلى أيدي القوم هو من الأشياء الّتي آتاهم الله تعالى ومنحهم إيّاها دون بذل المجهود الّذي يقارب ما حصلوا عليه فضلاً عمّا يساويه أو يفوقه .

ولّما كان فرح القوم فرح أشرٍ وبطرٍ وكفرانٍ لنعم الله تعالى وآلائه ، وكفرٍ بآيات الله تعالى وجحدٍ لها ، وتكذيبٍ لرسل الله تعالى وصدٌّ عن سبيله جلّ وعلا فقد أخذهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب البئيس بغتةً وبالعقاب الشّديد والأليم فجأةً، فإذا هم مبلسون آيسون من كلّ خير ، قد خسروا الدّنيا والآخرة والعياذ بالله . قال تعالى : ﴿ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون ﴾ .

لقد كان أخذ الله تعالى للقوم الكافرين شديدًا وقد قال تعالى(١) : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ وإلى مصير الكافرين السّيّئ ومصير المؤمنين الحسن أشارت الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دابر القوم الّذين ظلموا . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

---

(١) سورة هود ١٠٢ .

وانظر إلى حرف الفاء الّذى يفيد التّرتيب مع التّعقيب وإلى جملة « قُطِع » فى القول : ﴿ فَقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا ﴾ إنّ معنى هذا وهذه أنّ الأخذ كان غايةً فى الشّدّة والعنف إلى الحدّ الّذى تمّ معه قطع آخر القوم واستئصال دابرهم وشأفتهم. وحينما يكون البتر من نصيب آخر القوم فمن باب الأولى أن يكون من نصيب أوّلهم . ويوصف القوم بأنّهم ظالمون ، وفى ذلك تعيينٌ للسّبب الّذى من أجله أبيدوا عن بكرة أبيهم . إنّهم جمعوا إلى الكفر الظّلم . وإنّهم بدلاً من أن يرعووا إلى الحقّ تمادوا فى الباطل حتّى أخذهم الله تعالى العزيز المقتدر الجبار بأليم أخذه وشديد عذابه . ومن مظاهر أخذ الله تعالى المكذّبين والجاحدين بضروب البأساء والضّرّاء ما أشارت إليه الآية الكريمة التّالية .

الآيـــة رقـــم (٤٦)

قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إلـهٌ غَيْرُ الله يأتيكم به . انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يَصْدِفون ﴾ .

ولا يزال الخطاب متّجهًا إلى المصطفى ﷺ ، فهو الّذى يوجّه إليه جملة : ﴿ قل ﴾ فى هذه السّورة الكريمة التّى تشتمل على هذه الجملة بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم . ومعنى الآية الكريمة : قل أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لكفّار مكّة أخبرونى إن أخذ الله سبحانه وتعالى سمعكم فغدوتم صمًّا ، وأبصاركم فغدوتم عميًا وطبع على قلوبكم فلا تفقهون قولاً ، ولا تستقبلون هدىً ، ولا تهتدون سبيلا ، مَنْ إلـهٌ غير الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر يأتيكم بما أخذه الله تعالى منكم وسلبكم إيّاه . والجواب معروف : لا أحد .

وممّا يلفت النّظر الجمع بين السّمع والبصر . والمعروف أنّ العلاقة بينهما وثيقة .

وسبق أن لاحظنا فى الآية الكريمة التّاسعة والثّلاثين الجمع بين الصّمم والبكم ، لأنّ العلاقة بينهما هي الأخرى وثيقة . وفى كلتا الحالتين يتقدّم السّمع . وفى ذلك دليلٌ على أهمّيّة السّمع وتقدّمه ، فى مجال التّحصيل ، على البصر والنّطق ، العين واللّسان. وإثر تأخير البصر على السّمع فى الآية الكريمة يأتي الختم على القلب بعدهما . وهذا شيءٌ طبيعيّ لأنّ السّمع والبصر منفذا العلم ، ولأنّ القلب مستقرّه . وقد غدا القوم صمًّا عميًا . ويرتبط بالصَّمم البكم كما عرفنا . وينقسم العمي إلى نوعين ، عمى العين الّذى حلّ بأخذ البصر وعمى البصيرة الّذى حلّ بالطبع على القلوب والختم على الأفئدة . والعياذ بالله .

وممّا يلفت النّظر كذلك مجيء جملة « أتى » الّتى تدلّ على البعد فى القول : ﴿ مَنْ إلـٰهٌ غير الله يأتيكم به ﴾ ويؤكّد هذا البعد الجواب : لا أحد ، الّذى ليس ثمّة جوابٌ آخر سواه .

وكما كان المصطفى ﷺ بسبب جملة : ﴿ قل ﴾ محور حديث صدر الآية الكريمة ، كان ﷺ محور حديث عجز الآية الكريمة . وها هو ذا عجز الآية الكريمة يبدأ بالقول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ انظر ﴾ والمعنى : انظر أيّها الرّسول الكريم بعين بصيرتك وتدبّر ، تأمل أيّها النّبيّ العظيم بعقلك وتفكّر . انظر كيف نصرّف الآيات وتأمّل كيف نقلّب الحجج ، ثمّ هم بعد أن تبيّنت لهم الآيات ، وتأكّدت الحجج ، يتّخذون الموقف الّذى يخالف المنطق السّليم ، والعقل المستقيم ، ويصلون إلى النّتائج السّيّئة بالتكذيب والجحود ، وكلّ ذلك مخالفٌ للمقدّمات السّليمة ، والخطوات المستقيمة ، والحجج القويمة . وبهذا تشير أداة العطف « ثمّ » الّتى تفيد أساسًا التّرتيب مع التّراخى أو البعد ، إلى البعد فى المعنى بين ما نطقت به الأسباب من آياتٍ بيّناتٍ وحجج واضحات ، وبين ما أفضت إليه عقول القوم الكافرين المعوجّة، وفطرهم السّقيمة ، من نتائج فِجّة ، وعواقب وخيمة . إنّهم يصدفون عن الخير ويعرضون عن الحقّ ويصدّون عن سبيل الله تعالى .

وإذا كان السّياق من ذى قبل قد أشار إلى عذاب الدّنيا وقيام السّاعة ، وكان عذاب الدّنيا هو الأقرب حدوثًا والأكثر احتمالاً فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا العذاب العاجل فإلى .

الآيـــة رقـــم (٤٧)

قال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً أو جهرةً هل يُهْلَك إلاّ القوم الظّالمون ﴾ .

وجه الشّبه كبيرٌ بين صدر هذه الآية الكريمة وصدر الآية الكريمة الأربعين الّتى جاء فيها : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة ﴾ فالخطاب فى الموضعين للمصطفى ﷺ فى جملة : ﴿ قل ﴾ هذا إلى مجىء القول : ﴿ أرأيتكم ﴾ فى الموضعين ومعناه : أخبرونى أيّها الكافرون ، ومجىء القول : ﴿ إن أتاكم ﴾ والمعروف أنّ جملة : « أتى » تفيد البعد . وبالإضافة إلى البعد الزّمانيّ الّذى يصّح أن يفهم هنا من جملة : « أتى » إضافة إلى استبعاد الكافرين نفسيًا هذا العذاب فإنّ جملة : ﴿ أتاكم ﴾ فى الموضعين يصّح أن نفهم منها رحمة الله تعالى الّتى سبقت غضبه وعذابه فلعل الكافرين أن يستفيدوا من هذا الإمهال .

ومن البيّن حديث الآية الكريمة عن العذاب وحده . والمراد العذاب العاجل فى هذه الحياة الأولى . ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمّد للّذين كفروا أخبرونى إن أتاكم مستقبلاً عذاب الله تعالى بغتةً وفجأةً وبياتًا وليلاً ، أو جهرةً وعِيانًا ونهارًا ، ضُحىً أو وأنتم قائلون . هل يُهْلك ويُبادُ إلاّ القوم الظّالمون . والمعنى ما يُهْلك إلاّ القوم الظالمون ولا تُستأصل إلاّ شأفة القوم الّذين جمعوا إلى الكفر الظّلم بمعنى الشّرك مع الله تعالى فى العبادة غيره ، هذا إلى أنواع الظّلم الأخرى ولكنّ الشّرك أوّلها

وأهمّها وقد قال تعالى(١) : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وقد جاء في سورة الأنعام الكريمة في حقّ الّذين يستحقّون الأمن من عذاب الله تعالى يوم القيامة لأنّهم على صَواب وسواهم على خطأ قوله تعالى(٢) : ﴿ الّذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بظُلْمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ إنّ الّذين وحّدوا الله تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن والطّمأنينة يوم القيامة وأولئك هم المهتدون .

ونستطيع أن نفهم وجه الشّبه الكبير بين العديد من آيات القسم هنا وبين هذه الآيات الكريمات من سورة الأعراف . قال تعالى(٣) : ﴿ وما أرسلنا في قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يضّرّعون . ثمّ بدّلنا مكان السّيّئة الحَسَنَةَ حتّى عَفَوْا وقالوا قد مسّ آباءَنا الضّرّاءُ والسّرّاءُ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون . ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السّماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون . أوَ أمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ ومن البيّن غلبةُ الإنذار على هذا القِسْم من السّورة الكريمة . ولمّا كان المصطفى ﷺ بشيرًا ونذيرًا ، وكان القرآن الكريم متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في النّظم وغيره ، مثاني يثنّى فيه الوعد والوعيد وغيرهما فقد كان في الآيتين الكريمتين الأخيرتين من القِسْم تحقيقٌ لصفة المثاني ، في الآية الكريمة الأولى تبشير وإنذار ، وفي الآية الكريمة الأخرى إنذار . أمّا آية التّبشير والإنذار فإنّها .

---

(١) سورة لقمان ١٣ . (٢) سورة الأنعام ٨٢ .
(٣) سورة الأعراف ٩٤ ـ ٩٩ .

الآيـــة رقـــم (٤٨)

قال تعالى : ﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلِين إلاّ مبشّرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

تقصر الآية الكريمة مهمّة المرسلين فى بشارة المؤمنين بجنّات النّعيم ، وفى نِذارة الكافرين بنار الجحيم . وتبيّن الآية الكريمة بعد ذلك أهمّ صفات المؤمنين أصحاب جنّات النّعيم وتبيّن الحياة الطّيبة الّتى تنتظرهم فى الآخرة إثر حياتهم الطيّبة فى الأولى . إنّ الآية الكريمة تبيّن صفتين لأصحاب الجنّة الإيمان بالقلب ، وعمل الصّالحات بالجوارح والأركان ، كما تبيّن صفتين للثّواب من ربّ العباد . إنّهم لا خوفٌ عليهم بشأن ما سيصادفون مستقبلاً بعد الموت فى القبر والبرزخ والبعث والحساب فالثّواب من ربّ العباد . وإنّهم لا يحزنون على ما تركوه خلفهم فى هذه الحياة الأولى من مالٍ وجاهٍ وأحبابٍ وأهلٍ وأولاد . إنّ الحياة الآخرة فى حقّهم خيرٌ من الحياة الأولى . ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ الشّرطين اللّذين ينبغى توافرهما فى العمل الصّالح الّذى يرفعه الله تعالى ويقبله بمنّه وفضله . إنّ القول : ﴿ فمن آمن ﴾ يشير إلى شرط الإخلاص فى العمل ، بأن يريد المرء بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى وليس الرّياء ولا السّمعة . وإنّ القول : ﴿ وأصلح ﴾ يشير إلى شرط صلاح العمل بمقياس الإسلام . فالصّالح من العمل هو الّذى يراه الإسلام صالحًا بمقياسه وحده . والمعروف أنّ الاختلال بشأن هذين الشّرطين أو أحدهما محبطٌ للعمل .

ووراء ذلك نستطيع أن نفهم من القول : ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أنّ الإيمان بالقلب أو باللّسان لا يكفى بل لا بدّ من إعطاء الدّليل على صحّة الاعتقاد وعلى سلامة ما يجرى على اللّسان من إعلان للإسلام وادّعاء للإيمان . أمّا الدّليل على الإيمان فإنّه عمل الصّالحات الّتى تعتبر أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين أسسها المتينة وقواعدها الصّلدة . وإنّ الآية الكريمة فى جمعها بين الإيمان وعمل الصّالحات ، هي وكثير غيرها من الآيات الكريمات ، لتعطى الدّليل على وجوب تقديم الدّليل العمليّ على صحّة الإسلام وعلى الخطأ الشّنيع الّذى يرتكبه أولئك الّذين يرون

الاكتفاء بصّحة اعتقاد الجَنان[١] وسلامة نطق اللّسان . إنّ الإسلام علمٌ وعمل ، إيمانٌ وصلاح ، اعتقادٌ بالجَنان ، ونطقٌ باللّسان ، وعملٌ بالأركان[٢] .

وإذا كان من نصيب المؤمنين الخلود في جنات النّعيم فإنّ من نصيب الكافرين الخلود فى نار الجحيم . إنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن القوم فإلى

الآيــــة رقــم (٤٩)

قال تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ .

وما معنى القول : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا ﴾ معناه ببساطة : والّذين كفروا . والّذى يؤيّد هذا الفهم القول فى الآية الكريمة السّابقة عن الفريق المقابل وهم المؤمنون : ﴿ فمن آمن ﴾ فهؤلاء الكافرون كذّبوا بآيات الله تعالى وجحدوا بها وكذّبوا المصطفى ﷺ . ومن البيّن أنّ القول : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا ﴾ يشير إلى فساد اعتقاد القوم ، وذلك فى مقابل سلامة اعتقاد المؤمنين الّتى أشار إليها القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ فمن آمن ﴾ .

ولـمّا كانت الآية الكريمة السّابقة الّتى تحدّثت عن المؤمنين تحدّثت عن عملهم الصّالحات وذلك فى القول : ﴿ وأصلح ﴾ بعد حديثها عن سلامة اعتقاد المؤمنين ، فهل تحدّثت الآية الكريمة التّالية هذه عن عمل الكافرين الفاسد بعد حديثها عن اعتقادهم الفاسد ؟ والجواب بالإيجاب وذلك فى نصّ الآية الكريمة على فسق أولئك الكافرين المكذّبين . قال تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ والمعروف أنّ الفسق هو الخروج عن الصّراط المستقيم . فهؤلاء الكافرون أعمالهم سيّئة فاسدة بسبب فسقهم وخروجهم عن الصّراط المستقيم إلى سبل الضّلالة ومهاوى الرّدى . وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت صفتين سيّئتين للكافرين ، وذلك على غرار ذكر الآية الكريمة السّابقة صفتين حسنتين للمؤمنين . إنّ صفتي المؤمنين الحسنتين الإيمان وعمل الصّالحات . وإنّ صفتي الكافرين السّيئتين الكفر وعمل السّيئات ، تكذيب آيات الله تعالى والفسق عن أمر ربّ العباد جلّ وعلا .

---

(١) الجَنان بفتح الجيم بمعنى القلب .

(٢) المراد بالأركان هنا الجوارح .

[٥]

« مزيد إرشادٍ للنّبيّ ﷺ وإنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين »

الآيـات (٥٠ ـ ٥٨)

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ
عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ
إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ
عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ
رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا
بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ
أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾
قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا
تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

يعتبر هذا القسم امتدادًا للقسم السّابق الّذى يشتمل على الكثير من التّوجيه والإرشاد للمصطفى ﷺ بقصد تثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام . إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه ﷺ أن يقول لكفّار مكّة إنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس عنده خزائن الله تعالى الّتى ينفق منها ولا تنفد ، ولا يعلم الغيب إلاّ ما علّمه الله تعالى ، ولا يقول لهم عليه الصّلاة والسّلام إنّه ملك من الملائكة ولكنّه بشرٌ يتّبع ما أوحاه الله تعالى إليه من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة . وإنّ من اتّبع المصطفى ﷺ بمثابة البصير لأنّ بصيرته نيّرة ، وإنّ من أعرض عنه بمثابة الأعمى لأنّ بصيرته غير نيّرة بل هو أعمى البصيرة . إنّ على كفّار مكّة أن يستعملوا عقولهم الّتى منّ الله تعالى بها عليهم استعمالاً صحيحًا . وإنّ وسيلة المصطفى ﷺ العظمى للدّعوة وجيشه الأكبر الّذى يجاهد به هو هذا القرآن الكريم الّذى ينذر ربه عليه الصّلاة والسّلام أولئك الّذين يخافون أن يُحْشَروا يوم القيامة إلى ربّهم جلّ وعلا ، ليس لهم من دونه تعالى وليٌّ يتولّى شئونهم ولا شفيعٌ يشفع لهم لعلّهم يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي . واستمرارًا لإرشاد المصطفى ﷺ الّذى يكاد يموت لفرط الحزن بسبب إعراض قومه عنه وبخاصّةٍ أشراف مكّة ، ينهى السّياق المصطفى ﷺ أن يستجيب لطلب أشراف مكّة منه بأن يطرد فقراء المؤمنين وضعفاءهم الّذين سبقوا إلى الإيمان والّذين يعبدون الله تعالى وحده لا شريك له فى كلّ الأوقات . إنّه عليه الصّلاة والسّلام ما عليه من حساب الله تعالى لهم من شيء ، وإنّهم ما عليهم من حسابه ﷺ من شيء . إنّ طردهم هو عين الظّلم وإنّ المصطفى ﷺ قمّة العدل . ويلاحظ أنّ السّياق يجعل من المصطفى ﷺ محور الحديث دليلاً على رفيع منزلته عليه الصّلاة والسّلام عند بارئه جلّ وعلا .

لقد جعل الله سبحانه وتعالى أولئك الفقراء الضّعفـاء بسـبب سبقهم إلى الإيمـان وتنوير قلوبهم بالإسلام فتنةً للكافرين الّذين قالوا عن المؤمنين باحتقار كما جاء على لسانهم : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ وإنّ لسان الحال يقـول : نعـم هـؤلاء منّ الله تعالى عليهم بالسّبق إلى الإيمان واتّباع خير الأنام . وإنّ لسان المقال يقـول : إنّ الله تعالى هو أعلم بالشّاكرين الّذيـن جـاهدوا فـى الله تعـالى فهداهـم الله تعـالى وزادهم هدى . وتستمرّ العناية بـالمؤمنين ولطـف الله تعـالى بهـم حتّـى حينمـا تـزلّ النّعل ببعضهم . إنّ ربّ العزّة يقول للمصطفى ﷺ إنّ هؤلاء الّذين يؤمنـون بآيـاتى إذا جاءوك ، وبخاصّةٍ أولئك السّابقون الأوّلـون مـن المؤمنـين ، إذا جـاءوك فحيّـوك فقل سلامٌ عليكم وأمنٌ وطمأنينةٌ . كتب ربّكم جلّ وعلا على نفسه الرّحمة وسبقت رحمته جلّ وعلا عذابه أنّه من عمل منكم سوءًا بجهالةٍ ونزق ثمّ تـاب وآمـن وعمـل عملاً صالحًا فأنّه جـلّ وعـلا غفـورٌ رحيـم . إنّ ربّ العزّة فـى مثـل هـذا التّفصيـل والتّبيين يفصّل الآيات ويبيّنها لقومٍ يوقنون ولتستبين سبيل المجرمين فتُهجَر . ويسـتمرّ إرشاد الآيات للمصطفى ﷺ فيؤمر بأن يقول لأولئك المشركين الّذين يتّخذون مـن طرد المؤمنين وسيلةً للدّعوة إلى الشّرك وليس وسيلةً لاعتنـاق الإسـلام إنّ ربّ العزّة نهى المصطفى ﷺ أن يعبد الّذين يدعـون مـن دون الله تعـالى ، وإنّـه عليـه الصّـلاة والسّلام لا يتّبع أهواءهم الّتى لا تغنى من الحقّ شيئًا فإنّ الّذى يتّبعهم هو الضّالّ غير المهتدى ، وإنّه عليه الصّلاة والسّلام على برهانٍ من ربّه جـلّ وعـلا وهـم مـع ذلـك يكذّبون به ، وإنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب فـإنّ الحكم لله تعالى الّذى يقصّ القصص الحقّ وهو خير الفاصلين جلّ وعـلا . إنّـه عليـه الصّلاة والسّلام لو كـان عنـده مـا يستعجلون بـه لقضـي الأمـر بينـه عليـه الصّـلاة والسّلام وبينهم بإنزال العذاب بهم . إنّ الله تعالى هو أعلم بكفّار مكّة الظّالمين .

الآيــة رقــم (٥٠)

قال تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم إني مَلَك . إن أتّبع إلاّ ما يوحَى إليّ . قل هل يستوى الأعمى والبصير . أفلا تتفكّرون ﴾ .

تشتمل الآية الكريمة على جملة : ﴿ قُلْ ﴾ الّتى يخاطَبُ بها المصطفى ﷺ مرّتين اثنتين . وقد عرفنا أنّ هذه الجملة جاءت فى سورة الأنعام المكّيّة فيما يزيد على الأربعين موضعًا . وإنّ المصطفى ﷺ ليلقّن فى كلّ مرّةٍ ما يقوله لكفّار مكّة فى المقام الأوّل . ومن البيّن أنّ هذا التّلقين ضربٌ من تسليته ﷺ وتثبيت فؤاده وأفئدة أتباعه المؤمنين القليلى العدد آنذاك والّذين هم فى أشدّ الحاجة للتّوجيه والتّأييد والتّسديد .

إنّ الآية الكريمة تأمر فى صدرها الّذى يبدأ بجملة : ﴿ قل ﴾ تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة المادّيين الّذين اقترحوا عليه ﷺ مجموعةً من الاقتراحات المادّيّة الّتى لا أوّل لها ولا آخر ﴿ لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ والمعنى لا أدّعى فأقول إنّ عندى خزائن الله تعالى الّتى يرزق منها عباده والّتى لا تنفد . إنّ الّذى عندى هو من المال الّذى آتاني الله تعالى إيّاه وجعلني مستخلَفًا فيه . والمعروف أنّ النّبيّين ما ورّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكنّهم ورّثوا العلم . فعلى سبيل المثال لا مكان لاقتراح الكافرين أن يكون له ــ مثلاً ــ بيتٌ من ذهب أو أن يحوّل لهم الصّفا ذهبا .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ فى صدرها أن يقول كذلك للكافرين إنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يعلم الغيب إلاّ ما علّمه الله تعالى إيّاه ، وأوحاه إليه : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ .

وفوق هذا وذاك تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين إنّه ليس ملكًا من الملائكة : ﴿ ولا أقول لكم إنّى ملك ﴾ وحينما لا يكون المصطفى ﷺ

ملكًا من الملائكة يكون واحدًا من البشر الّذين يأكلون الطّعام ويتخلّصون من الفضلات ويمشون فى الأسواق كسائر البشر الّذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله تعالى . إنّ على كفّار مكّة وسواهم أن يعوا هذه الحقائق جيّدًا ، وأن يتصرّفوا وفقها ، وأن يطلبوا من المصطفى ﷺ ما يقع داخل حدودها وأبعادها ممّا يمكن تحقيقه بعونٍ من الله تعالى وفضل .

وحينما لا يكون المصطفى ﷺ ملكًا من الملائكة ، ولا يعلم شيئًا من الغيب الّذى لا يعلمه إلاّ الله تعالى ولا يملك شيئًا من خزائن الله تعالى الّتى لا تنفد يكون عبدًا لله تعالى اصطفاه بنعمة الرّسالة وختم النّبوّة والإيحاء إليه بواسطة الملك جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى على وحيه . وإلى هذا المعنى أشارت الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى صدر الآية الكريمة : ﴿ إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ ﴾ والمعنى : ما أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ يتلقّى نوعين من الوحي . النّوع الأوّل من الوحي باللّفظ والمعنى وهو القرآن الكريم الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين . والنّوع الآخر من الوحي بالمعنى غالبًا ، والمراد بذلك سنّته ﷺ المطهّرة ، وهي تتضمّن أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته. والمراد بالتّقريرات ما أقرّ الآخرين عليه فعُلِم أنّه حلالٌ وإن لم يفعله المصطفى ﷺ . فعلى سبيل المثال أكل خالد بن الوليد رضي الله عنه الضّبّ على مائدة المصطفى ﷺ . والمراد بصفاته ﷺ شمائله ﷺ . ومِنْ ألطف ما أُلّف فى الموضوع : الشّمائل المحمّديّة للإمام أبى عيسى محمّد بن سَوْرة التّرمذيّ صاحب سنن التّرمذيّ المولود بترمذ سنة ٢٠٩ هـ والمتوفّى فيها سنة ٢٧٩ هـ . إنّ كتاب الشّمائل المحمّديّة يشتمل على ثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثًا فى شمائله ﷺ(١) .

ولمّا كان النّاس قد انقسموا فريقين تجاه المصطفى ﷺ وما أوحاه الله تعالى إليه من قرآنٍ كريمٍ وسنّةٍ مطهّرة . وهذان الفريقان هم المؤمنون والكافرون فقد عبّرت الآية الكريمة فى عجزها الّذى يبدأ هو الآخر بجملة : ﴿ قل ﴾ عن هذين الفريقين

---

(١) الشّمائل المحمّديّة ٣ إخراج وتعليق محمّد عفيف الزّعبيّ الطّبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

وعن ضلال أحدهما وهداية آخرهما وعن عدم استواء الفريقين عند الله تعالى فريق أصحاب الجنّة وفريق أصحاب السّعير ، وينبغي ألاّ يستوى الفريقان عند كلّ من له أدنى عقل . قال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير . أفلا تتفكّرون ﴾ .

إنّ الجزئيّة الكريمة تسأل فى إنكار : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف . لا يستويان . وقد عبّرت الجزئيّة الكريمة عن الكافر بأنّه الأعمى ، والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة بجامع عدم رؤية الشّيء على حقيقته لدى كلٍّ من أعمى البصر وأعمى البصيرة . إنّ أعمى البصر ليس لدى عينه القدرة على تحويل نور المرئيّات إلى صورة . وإنّ أعمى البصيرة ليس لديه البصيرة الّتى تجعله يتّجه إلى نور الهداية ، ويسير فى الصّراط المستقيم . إنّ القاسم المشترك بين النّوعين من العمى هو الاشتراك فى عمى الظّلمات . عمى الظّلمات الحسّيّة فى حقّ الأوّل ، وعمى الظّلمات المعنويّة فى حقّ الآخر . ومن البيّن أنّ عمى البصيرة هو الأسوأ . ومن البيّن أنّ السّؤال : ﴿ هل يستوى الأعمى والبصير ﴾ يصحّ أن يستعمل فى حقّ كلٍّ من النّوعين من العمى ، وقد عرفنا أنّ المقصود بالعمى هنا فى الحقيقة عمى البصيرة . وإنّ أكبر دليلٍ على أنّ المراد بالعمى عمى البصيرة الاستفهام الإنكاريّ الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ أفلا تتفكّرون ﴾ إنّ المطلوب من كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحًا وأن يتفكّروا فى العمى بنوعيه كي ينتهوا إلى أنّه كما لا يتساوى فى مجال المحسوسات عمى العين والإبصار كذلك لا يتساوى عمى البصيرة والعياذ بالله ونورها . ومن البيّن أنّ النّوع الثّانى من العمى يحتاج إلى التّأمّل والتّدبّر والتّفكّر وإلى استعمال العقل استعمالاً صحيحًا وإلاّ كانت نتيجة الفكر العقيم والمنطق السّقيم ما جاء على لسان الكافرين(١) : ﴿ أجعل الآلهة إلـٰهًا واحدًا. إنّ هذا الشيءٌ عجاب ﴾ .

---

(١) سورة ص ٥ .

ولمّا كانت معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تـنزيلٌ مـن حكيـمٍ حميـد ، والّـذى أمـر الله تعـالى المصطفى ﷺ أن يجاهد به الكفّار جهادًا كبيرًا وذلـك فـى قولـه تعـالى فـى سـورة الفرقان(١) : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهـادًا كبـيرًا ﴾ فـإنّ الآيـة الكريمـة التّالية تتحدّث عن هذا الكتاب العزيـز الّـذي ينـذر بـه المصطفـى ﷺ آنـذاك قومـه الّذى كان يغلب عليهم الكفر . فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥١)

قال تعالى : ﴿ وأنذر به الّذين يخافون أن يُحْشَروا إلى ربّهم ليس لهـم مـن دونـه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلّهم يتّقون ﴾ .

يبشّر المصطفى ﷺ بهذا القرآن الكريم المتّقين وينذر به قومًا لدًّا شديدى العداوة للمؤمنين كافرين . ووراء ذلـك فـالقرآن الكريـم ينـذر بـه المؤمنـون ويحـذّرون مـن الخروج عن الصّراط المستقيم والسّـقوط فـى مهـاوى الـرّدى . والآيـة الكريمـة تـأمر المصطفى ﷺ أن ينذر بهـذا الكتـاب العزيـز أولئـك الّذيـن يخـافون أن يُحْشَـروا إلى ربّهم لفصل الحساب يوم القيامة ليس لهم من دونـه جـلّ وعـلا وليٌّ يتولّـى شئونهم ويرعاها فى الأولى والآخرة ولا شفيعٌ يشفع لهم عنـد الله تعـالى فـى الآخـرة لعلّهـم يتّقون النّار بفعل الأوامر واجتناب النّواهي .

فمن هـؤلاء الّذيـن يخـافون أن يحشـروا إلى ربهـم ويقفـوا بـين يديـه يـوم القيامـة للحساب فالجزاء ؟ أهم الكافرون ؟ أهم المؤمنون المفرّطون فى شيءٍ مـن جنـب الله تعالى ؟ أهم المؤمنون المتّقون الّذين يشفقون ألاّ يتقبّل الله تعالى منهم صالح الأعمال؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة نحن ننظر إلى الآية الكريمـة أوّلاً مـن زاويـة الكـافرين . فهل هؤلاء يخافون أن يحشروا إلى ربّهم وهم الّذين ليـس لهـم وليٌّ ولا شـفيعٌ لعلّهـم

---

(١) الآية ٥٢ .

يتّقون ؟ من المعروف أنّ الكافرين جاحدون في مجموعهم بمعنى أنّهم يقولون بألسنتهم خلاف ما تعتقده قلوبهم ، بمعنى أنّهم موقنون بأنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين وأنّ محمّدًا ﷺ رسول ربّ العالمين ولكنّهم يجحدون هذه الحقائق ظلمًا وعلوًّا ، ويقولون بأفواههم ما ليس في أعماق قلوبهم . وما دام القوم مصدّقين في أعماقهم كلاًّ من الرّسول الكريم والقرآن العظيم فمن الطّبيعيّ أن يكونوا مصدّقين لكلّ ما جاء به الرّسول الكريم من وحي بما في ذلك الحشر يوم القيامة إلى ربّ العالمين . في ضوء هذا الفهم نستطيع أن نذهب إلى أنّ معنى الآية الكريمة في حقّ هؤلاء : وأنذر أيها الرّسول الكريم بهذا القرآن الكريم وخوّف أولئك الكافرين الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ويقفوا بين يديه يوم القيامة للحساب فالجزاء بناءً على موقفهم في الحياة الدّنيا من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد وعلى أعمالهم ، ليس لهم من دونه جلّ وعلا وليٌّ يتولّى رعاية مصالحهم وشئونهم ولا شفيعٌ يشفع لهم عند الله تعالى في ذلك الموقف العصيب ، لعلّهم بهذا الإنذار والتّخويف يتّقون النّار بطرد الجحود والانقياد للحقّ واتّباع خير الأنام وتطبيق تعاليم أحسن الحديث كلام الملك العلاّم . ولا تشمل الآية الكريمة أولئك الكافرين الّذين لا يؤمنون بيوم الحساب أصلاً .

ووراء ذلك تشمل الآية الكريمة المؤمنين الّذين فرّطوا في شيءٍ من جنب الله تعالى ، ويكون معنى الآية الكريمة في حقّ هؤلاء : وأنذر أيّها الرّسول الكريم بهذا القرآن العظيم أولئك الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم جلّ وعلا لعلمهم بأعمالهم السّيّئة الّتي قاموا بها وبذلك خالفوا أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ . ليس لهؤلاء من دون الله تعالى وليٌّ يتولّى شئونهم ويرعى مصالحهم ولا شفيعٌ يشفع لهم عند الله تعالى . لعلّهم بهذا الإنذار يتّقون الله تعالى ويجعلون الأعمال الصّالحة الّتي يقومون بها وقايةً بينهم وبين نار جهنّم .

ووراء ذلك تشمل الآية الكريمة المؤمنين المتّقين اليقظين الحذرين المرهفي

الإحساس الّذين يعلمون أنّ زحزحتهم من النّار ودخولهم الجنّة بفضل الله تعالى وحده لا شريك له الّذى يتفضّل عليهم بكلّ شيء بما فى قبول أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام والّتى أرادوا بها وجه ربّهم الأعلى . إنّ هذا الفريق المؤمن المشفق ألاّ يقبل الله تعالى بفضله ومنّه صالح عمله يشمله قوله تعالى فى سورة المؤمنون(١) : ﴿ إنّ الّذين هم مِنْ خشية ربّهم مشفقون . والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون . والّذين هم بربّهم لا يشركون . والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ ويكون معنى الآية الكريمة فى حقّ هؤلاء : وأنذر أيّها الرّسول الكريم بهذا القرآن العظيم أولئك المؤمنين المتّقين الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم جلّ وعلا والوقوف بين يديه لشعورهم فى أعماقهم أنّهم مقصّرون فى جنب الله تعالى مهما تكن الأعمال الصّالحة الّتى يقومون بها . وهم على يقينٍ أنّهم ليس لهم من دون الله تعالى وليٌّ يتولّى أمورهم ولا شفيعٌ يشفع لهم إلاّ بإذنه جلّ وعلا لعلّهم يتّقون ويتقلّبون فى درجات الإيمان واليقين حتّى يصلوا إلى درجة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

وبهذا يتبيّن أنّ الإنذار على درجات ، وأنّه يتّجه إلى الكافرين أساسًا وإلى المؤمنين بمختلف درجات إيمانهم تبعًا ، كما يتبيّن أنّ التّقوى فى حقّ الكافرين تعنى اتّقاء النّار أوّلاً ، وأنّها فى حقّ المؤمنين الّذين فرّطوا فى جنب الله تعالى تعنى اتّقاء النّار والأخذ بقسطٍ من تقوى الله تعالى ، وأنّها فى حقّ المؤمنين المتّقين الارتقاء فى مجال درجات الإسلام والإيمان والإحسان إلى مرتبة التّقوى الّتى هي الإحسان ذاته أو الوجه الآخر له .

ومن بين المتّقين الّذين وصلوا بفضل الله تعالى إلى رفيع الدّرجات فى مجال التّقوى فقراء المسلمين وضعفاؤهم الّذين بادروا إلى اعتناق دين الإسلام واحتذوا

---

(١) الآيات ٥٧ ـ ٦١ .

خطوات خير الأنام ، والّذين ترشد الآيـة الكريمة التّاليـة المصطفى ﷺ إلى الطّريقـة الكريمة فى معاملتهم فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥٢)

قال تعالى : ﴿ ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه . مـا عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ فتطردهم فتكون مـن الظّالمين ﴾ .

سـبب النّزول :

روي الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش علـى رسـول الله ﷺ وعنده خبّاب وصهيب وبلال وعمّار فقالوا : يا محمّد أرضيت بهؤلاء ؟ فـنزل فيهـم القرآن : ﴿ وأنذر به الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ﴾ إلى قولـه : ﴿ أليس الله بأعلم بالشّاكرين ﴾[١] وقالوا : أهؤلاء الّذين منّ الله عليهم من بيننا ! أنحـن نكـون تبعًا لهؤلاء! اطردهم فلعلّك إن طردتهم أن نتّبعك[٢] .

إنّ كفّار مكّة الأغنياء الأقوياء يطلبون من المصطفى ﷺ أن يطرد من بحضرته من فقراء المؤمنين المتّقين من أمثال ابن مسعود وصهيب وعمّار والمقداد وبـلال وخبّـاب وسلمان[٣] لأنّ صهيبًا روميّ ، وسلمان فارسيّ ، وبـلالاً حبشـيّ ، « وقـالوا : إنّـا سادة قومك وأشرافهم فلو أدنيتنا منك إذا جئنا »[٤] .

وإنّ ربّ العزّة لينهى المصطفـى ﷺ عـن طـرد هـؤلاء المؤمنـين المتّقين الصّـادقي الإيمان . وكما نهت الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن طرد المؤمنـين وطاعـة الكـافرين الّذين تفوّهوا بهذا الحمق نهت هذه الآية الكريمة من سورة الكهف[٥] . قال تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهـم بـالغداة والعشـيّ يريـدون وجهـه ولا تَعْدُ

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٤/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢٧/٧ وانظر أسباب النّزول للواحدى النّيسابوري ٢٤٩ ــ ٢٥٢ .
(٣) أسباب النّزول ٢٥٠ ، ٢٥١ . (٤) أسباب النّزول ٢٥١ . (٥) الآية ٢٨ .

عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدّنيا ولا تطع مَنْ أَغْفَلْنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطا ﴾ .

والآية الكريمة تتألّف من جزئيّتين كريمتين . وقد حصل بشأن أولاهما نوعٌ من الفصل . وأصل الكلام : ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعَشِيّ يريدون وجهه فتكون من الظّالمين . ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ فتطردهم . يقول الطّبريّ[1] : « ﴿ فتطردهم ﴾ جوابٌ لقوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ . وقوله : ﴿ فتكون من الظّالمين ﴾ جوابٌ لقوله : ﴿ ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم ﴾ .

ومن البيّن التّلاحم المعنويّ فى القول : ﴿ فتطردهم فتكون من الظّالمين ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾ لا تطرد أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فقراء المؤمنين وضعفاءهم الحريصين على اللّصوق بك ، ولا تقصهم عنك نزولاً على رغبة كفّار مكّة الأغنياء الأقوياء فى مجموعهم . إنّ حرصك على دخول جميع الكافرين فى الإسلام لا ينبغى أن يقترن به إقصاء المؤمنين الضّعفاء الفقراء وإحلال الكافرين الأقوياء الأغنياء محلّهم نزولاً على رغبة الكافرين . إنّ المؤمنين المتّقين يدعون ربّهم جلّ وعلا صباحًا ومساءً ، ويصلّون له جلّ وعلا نهارًا وليلاً ، ويريدون وجه ربّهم الأعلى بكلّ أنواع العبادات الّتى يقومون بها فى كلّ الأوقات الّتى رُمِز لها بالغَداة أو الغُدوة من أوّل النّهار[2] أي البُكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشّمس[3] كما رمز لها بالعشيّ . والعشيّ والعشيّة آخر النّهار والجمع عشايا وعشيّات[4] والعشيّ من زوال الشّمس إلى الصّباح[5] إنّ هؤلاء المؤمنين المتّقين الفقراء الضّعفاء يدعون ربّهم فى كلّ الأوقات

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٣١/٧ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « غدا » ٣٥٨ .
(٣) انظر القاموس المحيط : « غدا » . (٤) انظر القاموس المحيط : « العشا » .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عشا » ٣٣٥ .

مظهرًا من مظاهر الخوف أن يحشروا إلى ربّهم جلّ وعلا يوم القيامة على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّابقة . وهكذا تقرّر الآية الكريمة المبدأ الإسلاميّ العظيم الّذى نصّ عليه قوله تعالى فى سورة الحجرات(١) : ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقد عرفنا أنّ أصل الكلام : ﴿ ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه فتكون من الظّالمين ﴾ والمعروف أنّ المصطفى ﷺ قد عاتبه ربّه جلّ وعلا أشدّ العتاب فى سورة عبس المكّيّة لمجرّد انصرافه عن عبد الله بن أمّ مكتوم الرّجل الأعمى الّذى لم يكن يدرى أنّ النّبيّ ﷺ مشغولٌ بمن يرجو إسلامه من أشراف قريش فقطع النّبيّ ﷺ بأن ناداه : يا رسول الله علّمنى ممّا علّمك الله . قال تعالى(٢) : ﴿ عَبَس وتولّى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعلّه يزّكّى . أو يذّكّرُ فتنفعَهُ الذّكرى . أمّا من استغنى . فأنت له تصدّى . وما عليك ألاّ يزّكّى . وأمّا من جاءك يسعى . وهو يَخشى . فأنت عنه تلهّى ﴾ فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء : مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربّي ويبسط له رداءه(٣) .

وإذا كان ما يسمّى بالصّدر قد حقّق معنى قوله تعالى من سورة الحجرات : ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ كما مرّ بنا ، فإنّ ما يسمّى بالعجز : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ فتطردهم ﴾ قد حقّق معنى قوله تعالى فى سورة فاطر(٤) : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ والمعنى : ما عليك أيّها الرّسول الكريم من حساب الله تعالى لهم من شيءٍ ، وما من حساب الله تعالى لك عليهم من شيء . أنت أيّها الرّسول الكريم لا تُسْأل عمّا يعملون ، وهم لا يُسْألون عمّا تعمل أيّها الرّسول الكريم . وبطبيعة الحال لم يفعل المصطفى ﷺ شيئًا ممّا اقترحه عليه اشراف قريش تجاه صادقى الإيمان من الفقراء والضّعفاء . إنّ ما هو اقلّ من الطّرد لم يحصل فكيف بالطّرد ذاته .

---

(١) الآية ١٣ . (٢) سورة عبس ١ — ١٠ .

(٣) انظر الجلالين وأسباب النّزول للواحديّ ٥١٧ . (٤) الآية ١٨ .

ومِنْ ألطف ما يلاحظ على القول : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ ﴾ التّوزيع الجميل للضّمائر والتّنويع اللّطيف لها ، بحيث يتكرّر اسم الضمير مع تغيّر المعنى ، ويتكرّر اللّفظ مع تغيّر اسم الضّمير . وهكذا نحن نتقلّب في نجاد ضمير المخاطب مع وهاد ضمير الغائب . إنّ ضمير المخاطب يتكرّر في نفس الموضع تقريبًا مع تنوّع المعنى : ﴿ ما عليك ... وما من حسابك ﴾ وإنّ ضمير الغائب يتكرّر في نفس الموضع تقريبًا مع تنوّع المعنى : ﴿ ما عليك من حسابهم .... وما من حسابك عليهم ﴾ .

وبعبارة أخرى يجيء مرّةً واحدةً القول : ﴿ عليك ... عليهم ﴾ ويجيء كذلك مرّةً واحدةً القول : ﴿ حسابهم .... حسابك ﴾ ومن الواضح تبادل مراكز الضّمائر في الجار والمجرور : ﴿ عليك ﴾ ﴿ عليهم ﴾ وفي القول : ﴿ حسابهم ﴾ و: ﴿ حسابك ﴾ .

وحينما يجيء القول : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ولا يجيء القول : ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما عليهم من حسابك من شيء ، نتبيّن أنّ التّعبير الّذي جاء في الآية الكريمة يجعل من المصطفى ﷺ المحور الّذي يدور حوله الحديث وذلك بإخضاع السّياق لضمير المخاطب الموجّه إلى المصطفى ﷺ ، ولهذا جاء الحديث عن المصطفى ﷺ متصدّرًا في كلٍّ من المرّتين : ﴿ ما عليك ... وما من حسابك ﴾ وذلك دليلٌ على رفيع منزلته ﷺ عند بارئه جلّ وعلا وعلى رفع ذكره ﷺ . إنّ الحديث إذا كان في الجانب الآخر يشمل المؤمنين المتّقين فإنّ المصطفى ﷺ هو الّذي له دائمًا وأبدًا مكان الصّدارة فهو المصطفى المختار بنعمة الرّسالة وختم النّبوّة . وإنّ هذه الصّيغة إنما كان مرغوبًا عنها ولم تأت في الآية الكريمة : ما عليك من حسابهم من شيء وما عليهم من حسابك من شيء ، لأنّ تقديم الجارّ والمجرور في الموضعين يظهر الطّرفين متساويين ، وليس

الأمر كذلك ، على حين بيّن التّعبير الّذى جاء فى الآية الكريمة ووضّح رفيع منزلة المصطفى ﷺ عند بارئه جلّ وعلا .

وإنّ الانسجام فى القول : ﴿ فتطردهم فتكون من الظّالمين ﴾ يتجاوز ما يتبيّن من تلاحمٍ معنويٍّ بسبب العطف وترتّب الآخر على الأوّل إلى التّوزيع العادل بين المخاطب والغائبين وفق نسق بديع . إنّ الخطاب فى الموضعين : « تطرد » و« تكون » يتّجه لشخص المصطفى ﷺ . وإنّ الحديث بعد الخطاب فى كلٍّ من المرّتين عن غائبين . فى المرّة الأولى ضمير جماعة الغائبين ، وفى المرّة الأخرى لفظ الظّالمين : ﴿ فتطردهم فتكون من الظّالمين ﴾ قال تعالى : ﴿ ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيءٍ فتطردهم فتكون من الظّالمين ﴾ .

وإنّ أشراف قريش من الكافرين إنّما طلبوا من المصطفى ﷺ أن يطرد المؤمنين بباعث الكبر المقيت والعزّة الآثمة . وقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى هذا الباعث فإلى .

الآيـة رقـم (٥٣)

قال تعالى : ﴿ وكذلك فتنّا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا. أليس الله بأعلم بالشّاكرين ﴾ .

فاز المؤمنون المتّقون الفقراء الضّعفاء بقصب السّبق وبادروا إلى اعتناق دين الإسلام والفوز بصحبة خير الأنام وفى ذلك ابتلاءٌ عظيم للكافرين المكذّبين الأغنياء الأقوياء . إنّ فى مثل هذه الطّريقة فتن الله سبحانه وتعالى وابتلى وامتحن واختبر بعض الطّغاة ببعض الضّعفاء البسطاء فأثار ذلك فى نفوس البغاة الكبر والحسد والحقد على المؤمنين والسّخرية بالفقراء والاستهزاء بالضّعفاء . إنّ هؤلاء يقولون عن

المؤمنين المتّقين الفائزين بقصب السّبق : أهؤلاء الفقراء الضّعفاء الّذين تحتقرهم النّفس وتزدريهم العين منّ الله تعالى عليهم بالإيمان وأنعم عليهم دوننا بالإسلام . وإنّ لسان حال هؤلاء المستكبرين في أعماقهم المستهزئين بفقراء المؤمنين ليقول كما جاء في الآية الكريمة من سورة الأحقاف[١] على لسان هؤلاء الكافرين في قوله تعالى : ﴿ وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم ﴾ .

نعم إنّ الله سبحانه وتعالى قد منّ على هؤلاء الضّعفاء الفقراء بنعمة السّبق إلى اعتناق دين الإسلام من بين أشراف مكّة ووجهائها القساة القلوب الغلاظ الأكباد . وإنّ هؤلاء الّذين جاهدوا فى الله تعالى هداهم الله تعالى سبله وقد قال تعالى[٢] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وإنّ هؤلاء الّذين اهتدوا زادهم هدى وقد قال تعالى[٣] : ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ وإنّ هؤلاء قد حمدوا الله تعالى الحمد كلّه وشكروا له جلّ وعلا نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة ، وفى مقدّمة هذه النّعم إرسال خير الأنام وإنزال أشرف الكلام والتّوفيق لاعتناق دين الإسلام . قال تعالى : ﴿ أليس الله بأعلم بالشّاكرين﴾ بلى إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بالشّاكرين الّذين قاموا بما يجب عليهم من شكر الله تعالى مربّيهم بنعمه وآلائه غامرهم بفضله وإحسانه . إنّ الله سبحانه وتعالى الغفور الشّكور بادل المؤمنين المتّقين صادقى الإيمان شكرًا بشكر . فى الحديث الصّحيح : إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[٤] .

ولا يقف فضل الله تعالى على ضعفاء المؤمنين عند حثّ المصطفى ﷺ على الحرص على قربهم منه ، وعند تقرير حالهم بأنّهم غيظ العدى الكافرين بسبب السّبق إلى الإيمان ، إنّما يتجاوز كلّ ذلك إلى تقرير رحمة الله تعالى الّتى تسعهم هم

---

(١) الآية ١١ . (٢) سورة العنكبوت ٦٩ .
(٣) سورة محمّد ١٧ . (٤) تفسير ابن كثير ١٣٥/٢ .

وسائر المؤمنين حينما تزلّ ـ لا سمح الله تعالى ـ بأحدهم النّعل . إنّ رحمة الله تعالى تسع المؤمنين جميعًا ، قويّهم وضعيفهم ، وإلى ذلك أشارت .

الآيــــة رقـــــم (٥٤)

قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الّذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربّكم على نفسه الرّحمة أنّه من عمل منكم سوءًا بجهالةٍ ثمّ تاب من بعده وأصلح فأنّه غفورٌ رحيم ﴾ .

رحمة الله تعالى بفقراء المؤمنين وضعفائهم تجاوزت إرشاد المصطفى ﷺ بعدم إبعادهم عنه وإحلال أشراف مكّة محلّهم إلى إرشاد المصطفى ﷺ إلى التّرحيب بهم حينما يجيئون وإظهار أسمى علامات الحبّ والمودّة لهم وذلك بردّ السّلام عليهم أو الابتداء بإلقاء السّلام عليهم بناءً على مقتضيات الأحوال . وانظر إلى جملة ﴿ جاءك ﴾ الّتى تدلّ على مجيء هؤلاء المؤمنين الفعليّ إلى المصطفى ﷺ ووصولهم إليه وإلقائهم السّلام عليه . إنّ جملة جاء تفيد هنا المجيء الفعليّ إلى المكان الّذى فيه المصطفى ﷺ . وقد يكونون قد جاءوا من قريب . وقد يكونون قد أتوا من بعيد . إنّ السّياق يركّز على مجيء القوم ووصولهم . وإنّ هؤلاء يوصفون فى الآية الكريمة بأنّهم يؤمنون بآيات الله تعالى . والمراد بآيات الله تعالى آي الذّكر الحكيم . وإنّ صيغة الزّمن المضارع : ﴿ يؤمنون ﴾ تشير إلى صفة الإيمان الرّاسخة فى أعماق قلوب هؤلاء المؤمنين بآيات القرآن الكريم الّتى لا تزال تنزل تباعًا والّتى استمرّ نزولها خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً إلى أن لحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى . إنّ إيمان القوم راسخٌ ومتجدّد .

وسواءٌ فاتح المؤمنونُ المصطفى ﷺ والمؤمنين بالسّلام ، أو فاتحهم المصطفى ﷺ به فإنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يلقي على هؤلاء الفقراء الضّعفاء السّلام، بمعنى الأمن والأمان والسّلامة والطّمأنينة . إنّ الجوّ وديّ . وإنّ ربّ العزّة

هو الّذى يأمر بإلقاء السّلام على هؤلاء الحريصين على أن يكونوا قريبين من المصطفى ﷺ للاهتداء بهديه والاستزادة من ذلك الهدي .

ويتجاوز فضل الله تعالى أمر المصطفى ﷺ بإلقاء السّلام على هؤلاء المؤمنين ، دليل الأمن والطّمأنينة ، إلى إذاعة جوّ الرّحمة من الرّبّ الرّحيم الّذى كتبها على نفسه وفرضها وقضاها[١] وأوجبها[٢] إنّ ربّ العزّة مالك الملك ذا الجلال والإكرام الّذى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون هو الّذى يوجب على نفسه الرّحمة لعباده ، قويّهم وضعيفهم ، فضلاً منه جلّ وعلا ومنّة ، جودًا وكرما . روي الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لمّا قضى الله على الخلق كتب فى كتابٍ فهو عنده فوق العرش : إنّ رحمتى غلبت غضبى . أخرجاه فى الصّحيحين[٣] .

وتتأكّد رحمة البرّ الرّحيم بعباده حينما يذنبون ويستغفرون ويتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحًا ويعملون الصّالحات . وإلى هذه المعاني أشارت الاية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ أنّه من عمل منكم سوءًا بجهالةٍ ثمّ تاب من بعده وأصلح فأنّه غفورٌ رحيم ﴾ .

إنّ كلّ من عمل عملاً سيّئا يسوء به نفسه أو الآخرين إنّما يعمله بباعث الجهل والسّفه والحمق . وإنّ ربّ العزّة الّذى سبقت رحمته غضبه وعذابه ليفتح باب التّوبة على مصراعيه لمن عمل سيّئةً أو كسب إثما ، ويفتح باب الأمل فى عفو الله تعالى وغفرانه ورحمته . إنّه لا يأس من رَوْح الله تعالى ولا قنوط من رحمته جلّ وعلا . وإنّ كلّ من عمل سيّئةً عليه أن يعلم بأنّ له ربًّا غفورًا يغفر الذّنب ويقبل التّوب فليبادر إلى التّوبة النّصوح ، وعليه ألاّ يؤجّل التّوبة أو يسوّف فى حقّها فإنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب ذو الطّول لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم . قال تعالى[٤] : ﴿ قل يا عبادِيَ الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إنّ الله يغفر

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٣٣/٧ والجلالين . (٢) تفسير ابن كثير ١٣٥/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٣٦/٢ . (٤) سورة الزّمر ٥٣ ـ ٥٨ .

الذّنوب جميعًا . إنّه هو الغفور الرّحيم . وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تُنْصَرون . واتّبعوا أحسن ما أُنْزِل إليكم من ربّكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفسٌ يا حَسْرتا على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن السّاخرين . أو تقولَ لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين . أو تقولَ حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّةً فأكون من المحسنين ﴾ .

ولا تكتفي الآية الكريمة بتقرير التّوبة وحدها إنّما تتجاوزها إلى وجوب العمل الصّالح الّذى يعدّ بمثابة الدّليل العمليّ على الصّدق في التّوبة . إنّ من تاب إلى الله تعالى توبةً نصوحًا وعمل الصّالحات الّتى أمر بها الشّارع الحكيم استحقّ أن يغفر الله تعالى ذنبه ويستر عيبه واستحقّ أن تشمله رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء .

ومن الأحاديث في معنى الآية الكريمة قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : أتدرى ما حقّ الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . ثمّ قال : أتدرى ما حقّ العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ ألاّ يعذّبهم[١] وعن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ قال : إنّ لله مائة رحمة . عنده تسعةٌ وتسعون وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجنّ والإنس وبين الخلق . فإذا كان يوم القيامة ضمّها إليه . تفرّد به أحمد من هذا الوجه[٢] وقد بيّنت هاتان الآيتان الكريمتان من سورة النّساء شروط التّوبة . قال تعالى[٣] : ﴿ إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليمًا حكيما . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنّى تُبْتُ الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار . أولئك أعتدنا لهم عذابًا أليما ﴾ . وقد بيّن العلماء بشأن حقوق الله تعالى أنّ للتّوبة شروطًا ثلاثة . الإقلاع عن المعصية . والنّدم عليها . والعزم على عدم العودة إليها . وبشأن حقوق عباد الله تعالى يضاف إلى هذه الشّروط الثّلاثة شرطٌ رابع هو إعادة الحقوق إلى أصحابها[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٦/٢ . (٢) تفسير ابن كثير ٢٥١/٢ .
(٣) سورة النّساء ١٧ و١٨ . (٤) انظر مثلاً رياض الصّالحين للإمام النّوويّ ١٠ .